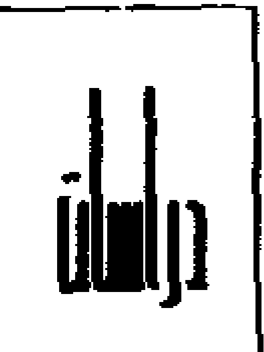


محمد كامل الخطيب

الرواية واليوتوبيا

الرواية واليوتوبيا

منشورات






اسم المؤلف : محمد كامل الخطيب
عنوان الكتاب : الرواية واليوتوبيا
تاريخ الطبع : ١٩٩٥ / ١٠٠٠ نسخة
التصميم : محمد سعيد الصكار - باريس
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ - ٧٣٦٦ - ٣٣٠٣٩
تلفون : ٧٧٢٠١٩ - ٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 - 7366 - 33039

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

محمد كامل الخطيب

الرواية واليوتوبيا









تقديم

تزامن في عام ١٤٩٢ حدثان فريدان وذوا دلالتين مختلفتين ، إن لم نقل متعاكستين ، ففي هذا العام قضي على آخر الممالك العربية في أوروبا ، «في اسبانيا» ، وسقطت غرناطة رسمياً ، أما الحدث الثاني فهو وصول كريستوف كولمبس إلى «العالم الجديد» أمريكا .

كان العرب حملة مشعل الحضارة في منطقة الحضارات الأوروبية والمتوسطية ، خلال العصور الوسطى ، أي بدءاً من القرن السابع الميلادي وحتى القرن الرابع عشر ، إلا أن عملية اضمحلال سيطرتهم طويلة المدى ، بلغت نهايتها آنذاك ، وخروج منطقتهم من سدة السيطرة العالمية ، يمكن تأريخها بحادث ١٤٩٢ ، أما مدُّ هذا التاريخ أطول قليلاً أي إلى عام ١٥١٦– ١٥١٧ ، أي عام دخول الأتراك الأقطار العربية ، فلا يغير من الأمر شيئاً .

صحيح أن محمد الفاتح كان قد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٢ ، لكن ذلك لم يغير شيئاً من مسيرة انحلال المنطقة الشرق أوسطية ، بينما كانت أوروبا تصعد ، كما أن بالامكان الادعاء أن سقوط القسطنطينية نفسه هو حلقة في سلسلة انهيار منطقة الشرق الأوسط وفقدانها لأهميتها ، في وقت كانت فيه أوروبا تتقدم ، وتصعد إلى سدة التاريخ والسيطرة العالمية ، حاملة مشعل الحضارة .

الحـدث الثـاني في هـذا العام «١٤٩٢» والذي كـان بداية ، مـثلمـا هو عنوان للصـعود الأوروبي إلى سـدة السيطرة العـالمية هو الوصـول إلى أمريكا كـما قـدمنا ، من ناحية ، ثم الوصول إلى الهند عام ١٤٩٨ من ناحيـة ثانية ، وهما وجهان لعملية واحدة ، فـمن المعروف أن كولمبس كـان يسعى للوصول إلى الـصين والهند ، وهما الخطوط الخلـفـيـة لمنطقـة الشرق الأوسط ، مـنطقـة الـعرب والاسـلام ، ومن ثم ضـربها من ظهـرهـا ، أو للوصـول إلى الاحـتـيـاطي ، أو العـمق الـسـتـراتيـجي لهـذه المنطقة ، وربما ، أملاً في تمويل وإعداد حملة عـسكرية مسيحية صليبيـة ، تتابع حملة فرناندو وايزابلا ، والحملات الصليبية فيما قبل .

لكن اكتشـاف قارة جديدة ، أنسى كولمبس وخلفاءه ، وأوروبا عمـوماً ، الهدف الأول ، وبالمقابل ألهى أوروبا مـؤقتاً بـحملات صليبيـة أخرى نحو العـالم الجديد في الغرب ، بدل توجـيهها نحـو الشرق ، كمـا كانت الرغبـة والخطط ، مما دفع منطقة الشرق الأوسط ، والمنطقة العربية خصـوصاً ، إلى الهامش ، وذلك بعد الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجـاء الصـالح ، دون عبـور الممـر الاستـراتيـجي لبلاد الشـام ومـصر ، ودون الحـاجـة لذهب دولة الممـاليك الآتي من أواسط أفـريـقيـا ، فـقد كـان ذهب أمريكا وفيراً .

وببـساطة : لقـد فقـد البـحر الأبيض المتـوسط ، أهمـيتـه لصالح المحـيطين : الأطلسي ثم الهادي ، فيما بعد ، ومن ثم تهمشت منطقة حوضه الشرقي .

خلاصة القول ، حصلت أوروبا على «مجال حيوي» ومصدر جديد للقوة ، وبهذا تفـوقت على منطقـة الشـرق الأوسط ، وبالتـزامن مع هذا التـطور الجـغـرافي – الاقـتصـادي ، كان هناك ثروة جـديدة وتطور فكري وعـمراني وعلمي تقني وضع أوروبا على مسـار العصر الحديث ، بينمـا في الوقت نفسه ، وكنتـيجة لهذا التـقدم الأوروبي ، كانت تحدث في الشرق الأوسط أو العربي مسيرة متعاكسة مع الصعود الأوروبي ، وهذا مـا أدى ، مع الزمن إلى الفروق الشـاسعـة التي نراها اليوم مـابين هذين المديين الجغرافيين .

نحن الآن في عـام ١٩٩٢ ، حيث تمر الذكـرى الخمسـمائة لهذيـن الحدثين التـاريخـيين الفـاصـلين ، ويبـدو أن التـأمل فـي ذكـرى هذا الـعام ، والاحـتـفـالات والكتـابات والمعـارض والتظاهرات التي جرت خلال هذا العـام ، بهـذه المناسـبـة ، كانت من جملة الحوافز التي جعلت الكاتب ، مثل كثيـرين غيره ، يتـأمل ملياً في مـعنى ١٤٩٢ ودلالـتـه ، هذا العام الذي يمكن تـسـمـيـتـه عـام : خـروج العرب من التـاريخ ، مـثـلمـا يمكن بالمقـابـل تـسـمـيـتـه عـام «دخـول أوروبـا إلى التـاريخ» أو سـيطرتـهـا عليـه وقـيـادتـهـا لـه ، فـقـد أعلن هذا العـام سـقـوط مكانـة عـالم قـديم ، وبداية صـعـود مكانة عـالم جـديد ، سـقط عـالم الـبـحـر الأبيض المتـوسط المغلق تقـريبـاً والضيق ، وصـعـد عالـم المسافـات البـعـيدة والمحيطات المفـتـوحة ، عـالم المحيط الأطلسي والمحيط الهادي .

يقتصـر هذا البحث ، (الرواية واليوتوبيـا ١٤٩٢ - ١٩٩٢) ، على تأمل نتائج ودلالات الحدث الثاني ، أي دخـول أوروبا إلى التاريخ وسيطرتها عليه منذ اكـتشاف أمـريكا ، مـركـزاً على الديـنـامـيـة الداخليـة لسـيـرورة هذا الحـدث ، وإن تم ذلك من مـقـتـرب أدبي هو مـقـتـرب فـنـي «الرواية والـيـوتوبيـا» «وهـمـا فـنان أوروبيـان بامتياز» في ظهورهما وتطورهما وتواشجهما .

آمل ، فـيـمـا بعـد ، تقـديم تأمل فـي الحدث الأول ، أي «خـروج العـرب من التـاريخ» مع محاولة «الـعودة إلى التـاريخ» وهي المحاولة التي مـازالت المنطقـة العربية تبذلها ، منذ أوائل القرن التاسع عشر .

مـرة أخـرى ، آمل أن يكون مـقـتـربي الأدبي صـالحـاً لمـنـاقـشـة ظاهرة وتجـربة تاريخـية في حـجم الظاهرة والتـجربة الأوروبيـتين ، وهي ظاهرة يمكن ، بطبـيعـة الحال ، تأملها من مقتر بات أخرى .

محمد كامل الخطيب

١٩٩٢

القسم الأول

كولومبس - ١٤٩٢

الفصل الأول

كولومبس عام ١٤٩٢

تحمل رحلة كريستوفر كولومبس التي أدت الى اكتشاف امريكا، أو فتحها كما يريد بعضهم أن يقول، دلالات متعددة بتعدد وجهات النظر وزوايا المقاربة، فهي بالنسبة لمؤرخ الرحلات البحرية مغامرة، وبالنسبة لعالم النفس مثال على العناد والثقة بالنفس والحلم الكبير، وهي من وجهة نظر المؤرخ حدث فاصل في التاريخ الحديث، وقد ينظر اليها اللاهوتي المسيحي على انها مشيئة الله لتنصير أمريكا، أما بالنسبة للاقتصادي فهي أحد أهم أسس ثروة أوروبا التي مهدت للثورة العلمية والصناعية فيما بعد، أي أحد أهم الأسباب التي أدت الى تفوق «الغرب» في العصر الحديث. وعلى كل حال، وأياً كانت دوافع الرحلة وأوجه مقاربتها، فان النتائج بعيدة المدى التي كانت لهذه الرحلة من النواحي الجغرافية والاقتصادية والفكرية والأدبية، تفوق دوافعها في الأهمية والتأثير والنتائج، وكما ظهر ذلك فيما بعد.

– ٢ –

كان اكتشاف امريكا اكتشافاً لنصف مجهول من الكرة الأرضية، فقبل كولومبس أو قبل اكتشاف امريكا على الأصح، كان هناك تصور

مختلف للعالم مفاده أن هذا العالم مؤلف من أسيا وافريقيا وأوروبا فقط، وأن الماء يحيط بهذه الأرضين، ومن هنا كان تصور كولومبس وغيره من البحارة عن امكانية الوصول الى آسيا والصين، عن طريق بحري دون الطريق البري الذي يمر في منطقة الشرق الأوسط، هذه الطريق التي يسيطر عليها العرب والمسلمون، لكن المشكلة كانت تأتي من ناحيتين : الأولى تقنية، أي عدم وجود سفن قادرة على الإبحار بعيد المدى في أعماق المحيطات، والثانية فكرية - نفسية - إن صحت التسمية، أي مشكلة المجهول وما يستتبعها من تخيلات حول طبيعة «بحر الظلمات» حيث الماء يغلي، كما قال بعضهم، أو حيث ينتهي العالم كما قال آخرون. لكن خرائط كولومبس وشجاعته وملاحظاته البحرية ودوافعه النفسية وأحلامه في العظمة والاكتشاف والنبالة، كانت تؤكد له امكانية عبور المحيط الأطلسي وشق الطريق الى الصين، وان لم يدر في خلده امكانية وجود قارة في الوسط تعترض الطريق البحري الغربي بين أوروبا وآسيا، وقد كان كولومبس يقدم بذلك طريقاً بحرياً مغايراً للطريق الذي يحاول البحارة البرتغاليون شقه نحو آسيا، أي طريق الدوران حول افريقيا، إذ كان البحار البرتغالي بارتلميو دياز هو صاحب الاقتراح الثاني، وهو طريق ما لبث ان تبينت امكانية السير فيه عام ١٤٩٨ كما هو معروف.

- ٣ -

عرضت تفاصيل حياة ومغامرات كريستوفر كولومبس مراراً بحيث تبدو محاولة عرضها هنا مكرورة، لكن لا بأس من التذكير بأن كولومبس ولد على مفترق من مفترقات الزمن أو التاريخ، فقد ولد هذا البحار الايطالي الشجاع في نقطة تقاطع العصر الجديد مع العصر القديم، وبهذا كان يحمل بعضاً من صفات العصرين معاً، فمن العصر القديم

حمل الاحساس الديني العميق وطموح النبالة، ومن العصر الحديث حمل صفات العلمية والاعتماد على الخرائط والمعلومات والملاحظات بدل الخرافات والتخيلات عن طبيعة الأرض والبحر.

ولد كولومبس عام (١٤٥١) في المدينة البحرية الايطالية «جنوى» ونزل الى البحر مع أبيه النساج وهاوي الصيد في العاشرة من عمره، ويبدو أن هوى البحر سكنه منذ تلك السن المبكرة، وبعد ذلك قام برحلات بحرية الى موانئ البحر الأبيض المتوسط القريبة قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين، وبعدها ذهب الى اسبانيا فالبرتغال التي كان بحارتها وعرشها يقودون حملة الاستكشاف البحري محاولين الوصول الى طريق بحري نحو آسيا، حيث الذهب الذي سبق لماركو بولو أن وصفه في رحلته، وحيث البهارات والمواد الثمينة الأخرى، وفي البرتغال اشتغل كولومبس مع أخيه في مرسم للخرائط البحرية، ويبدو أنه عثر في هذا المرسم على خرائط تؤكد له امكانية الوصول البحري الى آسيا، لكن عن الطريق الغربي، أي عبر المحيط الأطلسي «بحر الظلمات»، ومن يومها سكنه هذا الحلم، ومضى يخطط له ويعرضه على ملوك أوروبا المتنافسين في ميدان السيطرة البحرية والاكتشافات، وخاصة ملوك البرتغال واسبانيا وبريطانيا وفرنسا، الى أن اقتنع التاج الاسباني عام ١٤٩٢، أي في عام نصره في الحروب المسماة لدى الاسبان بحروب الاسترجاع. وهكذا قام كولومبس بالابحار على ثلاث سفن (البنتا والنينا والسنتا ماريا) الى أن وصل الى جزر ورأى بشراً، فافترض أو توهم أنه وصل مبتغاه، أي آسيا، بل الهند تحديداً، فأطلق اسم الهند الغربية على المكان المكتشف، ومات دون أن يدرك أنه وصل الى قارة جديدة، الى أن أتى بعده بحار ايطالي آخر هو «امريكو فسبوتشي» وتأكد أن هذه «الهند الغربية» ليست آسيا، بل هي «عالم جديد» أطلق عليه اسم : امريكا.

هذا الاكتشاف الجديد، وخاصة بعد أن تبينت معالمه ورسمت حدوده وتخومه، سيجعل الانسان، والأوربيين آنذاك خصوصاً، يدركون حدود العالم ومحدوديته، ومن ناحية ثانية فإن هذا الاكتشاف سيضع أسس ربط العالم ببعضه وتوحيده فيما بعد. كذلك أدى هذا الاكتشاف الى توجه الفعالية والطاقة الحربية والاستكشافية الأوربية نحو الغرب، بعد أن كانت موجهة نحو الشرق منذ الحروب الصليبية وحروب الاسترجاع الاسبانية، وقد نتج عن ذلك توجه الطاقة الحربية الأوربية الى التنافس فيما بينها للحصول على المغانم، بعد أن كانت موحدة تقريباً في حملاتها الصليبية ضد المسلمين، وهذا التنافس العسكري الداخلي الأوربي سيطبع تاريخ أوروبا في العصر الحديث منذ اكتشاف امريكا والى الآن، مثلما سيولد ظاهرة الاستعمار الحديث، وهكذا في حروب التنافس لاقتسام امريكا الجديدة بين الدول الأوربية، تكشف الطابع الديني للحروب الصليبية عن طابع اقتصادي مباشر، ففي العالم الجديد لا يوجد مسلمون يمكن تغطية دافع الحرب بطردهم، أو استرجاع قبر المسيح من أيديهم.

أدى اكتشاف اوروبا لامريكا أيضاً الى تهميش الشرق، أي الطريق البري الى آسيا، طريق التجارة بالذهب والبهارات والجواهر، اذ أن هذا الحدث التاريخي نقل مركز الفعالية والنشاط العسكري والتجاري من حوض المتوسط والطريق البري الشرق أوسطي، الى منطقة الأطلسي والغرب عموماً.

ربما كان ذلك مريحاً من ناحية تخفيف الضغط العسكري على منطقة الشرق العربي، لكنه كان وبالاً من الناحية الاقتصادية والتجارية،

بل ومن ناحية القوة التي تثيرها في الذات والمجتمع مواجهة التحدي ؛ فبفقدان العدو، فُقدت المنافسة مع الغرب، وبالاتجاه نحو الغرب سقطت القيمة الاقتصادية لتجار المنطقة العربية، وفقدوا سيطرتهم على الذهب الآتي من وسط افريقيا، بعد أن نجح الأوربيون في الوصول الى قلب افريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، ومن ثم وصلوا الى اسيا، مثلما تحول كولومبس الى الغرب، واكتشف قارة جديدة كان ذهبها أحد المصادر الجديدة للثروة الأوربية، وبالتالي للتفوق الاقتصادي الأوربي دون الاعتماد على الشرق وثرواته وطرق تجارته. وهكذا وضعت أولى أسس تقويض دولة المماليك في مصر والشام والتي مالبثت ان انهارت عام ١٥١٦ أمام الفاتح العثماني.

- ٥ -

أما على صعيد المخيلة، فقد كانت امريكا محرضاً جديداً للمخيلة الأوربية زرع فيها فكرة العالم الجديد، اي فكرة «اليوتوبيا» تحديداً، مثلما كانت قصة مغامرة كولومبس البحرية مثالاً طيباً لرواية المغامرة الفردية، وبديلاً لقصص الفروسية والعشاق المعادة، فكولومبس أبحر مثل يولسيس في البحار، لكن اذا كان يولسيس قد أبحر وغامر في البحر الضيق، محدد الشواطئ ومعروفها، أي في البحر الأبيض المتوسط، بحر الحضارات القديمة والنشاط التجاري والعسكري، آملاً العودة الى بيته وزوجته بنلوبي، فان كولومبس أبحر في بحر مجهول «بحر الظلمات»، مغادراً بيته وأهله، ومتحدياً الخرافات، مسترشداً بالعلم الجغرافي والبيانات، أي بالخرائط والملاحظات، وبالطبع ان رجلاً لم يدرب نفسه على التفكير العلمي والعقلاني، أياً كانت عواطفه الدينية، لا يستطيع مثل هذا التحدي للمجهول والخرافة، وبهذا كان كولومبس بطلاً

روائياً وسلفاً مشروعاً لروبنسون كروزو الذي ستنتجه المخيلة الروائية فيما بعد، مثلما كانت امريكا، والعالم الجديد ببساطة حياتها، وبعدها عن «تراث» اوروبا والشرق، بل والعالم القديم عموماً، أساس تصور «يوتوبيا» توماس مور كما سنرى فيما يأتي ؛ وبهذا تحولت امريكا، الى «فردوس مأمول» يعوض «الفردوس المفقود» وانزرعت في المخيلة الأوربية، والعالمية فيما بعد، ثم نبتت على شكل «الحلم الامريكي» الذي كثيراً ما نسيت محسوسيته وواقعيته، وتحول الى مجرد رمز، تماماً مثل جنة عدن، أو القدس السماوية أو «طريق دمشق» الذي يهتدي من يسير فيه.

- ٦ -

يبدو أن هاجس بناء عالم جديد، أو يوتوبيا، كما سيقال فيما بعد، قد داعب الكثيرين منذ اكتشاف امريكا، هذا الاكتشاف الذي أطلق الفكرة في العصر الحديث، وبدءاً من يوتوبيا توماس مور الخيالية، والتي تجد في امريكا أساساً لمخيلتها، وحتى الحرب العالمية الثانية، حين خرجت أمريكا لتصبح أعظم قوة في العالم، استمر الحلم الامريكي «حلم بناء عالم جديد، عالم تخلص من إرث الماضي أو إرث الخطيئة الأولى»، لكن كم سفح في سبيل تحقيق هذا الحلم من دم ودموع وأرواح وأفكار خلال الخمسمائة عام الأخيرة ؟ وكيف سار التاريخ الأوربي - العالمي ؟! هذا ماتحاول هذه الدراسة تتبعه، ونعتقد أننا أظهرنا لماذا حددنا عام ١٤٩٢ منطلقاً للعصر الحديث ولبحثنا كذلك.

الرواية ، اليوتوبيا ، الحلم

الفصل الثاني

مدخل

في تحديد زمان نشوء الرواية لدينا رأيان، فثمة رأي يبدأ من فلدينغ كروائي، ويستمر عند هيغل كفيلسوف، وأخذ به جورج لوكاتش كعالم جمال، ويتابعه لوسيان غولدمان كناقد أدبي، مختصر هذا الرأي أن الرواية ملحمة نثرية صعدت مع صعود البورجوازية، أي أن الرواية هي فن حامل لتطلعات وأشواق الطبقة البورجوازية في فترة نشوئها الثوري، ويمكن تحديد بدايات هذه الفترة بأنها القرنان السادس والسابع عشر، مع العلم أن صعود فن ما، في فترة ما، لايعني بقاءه أسير مفهومات هذه الفترة بالضرورة.

أما الرأي الآخر الذي يأخذ به ميخائيل باختين فيربط الرواية بصعود التيار الشعبي إلى مسرح الحدث التاريخي، أو تحقيق الشعب لهويته وحضوره في التاريخ والمجتمع، ويمكن العودة بهذا التحديد إلى الفترة المحددة السابقة إياها، أي القرنين السادس عشر والسابع عشر.

يبدو أن لا تناقض بين الرأيين، فالبورجوازية لم تصعد كطبقة مستقلة، بل صعدت باسم الجميع حاملة راية المستقبل للبشرية جمعاء، أي راية الشعب ـ الانسان الذي يريد تجاوز مرحلة الاقطاع ـ الكنيسة في العصور الوسطى. لقد كانت البورجوازية في فترة صعودها تحمل راية التاريخ الانساني ككل وتتحدث باسم الانسان كانسان، وليس باسم رجال الأعمال والصناعة والبيروقراطية أو البورجوازية عموماً، كما آل

إليه حالها، فيما بعد، وربما لهذا السبب كانت شعارات البورجوازية شاملة وإنسانية: عدالة ـ حرية ـ مساواة للجميع في هذه الدنيا، وليس في الآخرة، كما كانت تقول الكنيسة.

أما بالنسبة لليوتوبيا فقد نشأت في فترة نشوء الرواية نفسها، أي فترة صعود البورجوازية كطبقة ثورية، وفترة ظهور الشعب على مسرح التاريخ، فسمات هذا التاريخ واضحة في اليوتوبيا. كذلك كانت، كالرواية تحمل واقع وأشواق الصاعدين الجدد الباحثين عن «مدينة الشمس» بدل «مدينة الله»، وتعبر عن أحلامهم التي كانت بديلاً للواقع المعاش آنذاك، وأشواقاً وتصورات ومشروعات مقترحة لبناء عالم جديد بعد أن اكتشف عالم جديد هو أمريكا (١٤٩٢).

لكن أوجه الشبه لا تقف عند هذا الحد، بل ربما كانت تكمن في المنطق الداخلي، إضافة إلى التزامن في لحظة الظهور وإمكانية واتجاه التأويل، ثم في طريق الصعود والتطور التاريخية، وهو موضوع هذا البحث، وبمعنى آخر، فهذا البحث يريد أن يعرض ويتتبع المضمون والطابع أو البعد اليوتوبي للفن الروائي، مثلما يتتبع الطابع الروائي التخييلي للفن اليوتوبي، آملاً بذلك تفسير الرواية أو تأويلها على أنها يوتوبيا بشرية، أو حلم يقظة بشرية، بكل ماتحمله اليوتوبيا، وحلم اليقظة من سمات ودلالات ، وفي الوقت نفسه النظر إلى اليوتوبيا من منظار الرواية وآلياتها.

بقيت ملاحظة، وهي أننا لن نتتبع هنا اليوتوبيات الفلسفية والدينية والشعرية مثل جمهورية أفلاطون، ومدينة الله للقديس أوغسطين، والكوميديا الالهية لدانتي، أو رسالة الغفران للمعري، وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي وحي بن يقظان لابن طفيل، لكن سنبدأ من تزامن

وقائع صعود البورجوازية الأوروبية إلى مسرح التاريخ الأوروبي – العالمي، واكتشاف أمريكا، وبداية السرد الروائي، أي انفصال النثر الأدبي الروائي عن الشعر الملحمي، ولهذا سنبدأ من رواية دون كيشوت لسرفانتس، ويوتوبيا لتوماس مور، ونواصل رحلتنا حتى نصل القرن العشرين في أواخره.

ترى ماهو الخيط الواصل مابين رواية «دون كيشوت» لسرفانتس ورواية «المونسنيور كيشوت» لغراهام غرين في ثمانينات القرن العشرين، أو أية رواية على مدى التاريخ الروائي الأوروبي، وماهي الصلة مابين «يوتوبيا» توماس مور، واليوتوبيات الروائية المضادة في القرن العشرين، ثم ماعلاقة ذلك باكتشاف أمريكا، وصعود العقلانية والبورجوازية الأوروبيتين، وكلها وقائع تزامنت في حدوثها؟! هذا ماتحاول هذه الدراسة عرضه.

الرواية ، اليوتوبيا ، الحلم

١/١

ترسم اليوتوبيا مكاناً متخيلاً، ،كذلك تفعل الرواية، وفي حين تعرِّف اليوتوبيا بأنها «لامكان» أي لامكان واقعي أو موجود، فإن مكان الرواية هو كذلك مكان متخيل، وبمعنى آخر فهو لامكان، وحتى أمكنة الرواية المحددة - دمشق - بطرسبورغ - لندن- القاهرة... الخ» تكون في الرواية غيرها في الواقع، هي في الرواية خيال، فبطرسبورغ دوستويفسكي في «الجريمة والعقاب» هي غير بطرسبورغ المدينة الواقعية، والقاهرة في ثلاثية نجيب محفوظ ليست هي القاهرة إياها.

١/٢

نشأت الرواية واليوتوبيا مع صعود الكتابة النثرية، مقابل اللغة الشعرية التي كانت لغة الأدب (المسرح- الشعر...الخ) واللغة النثرية هي لغة الشعب اليومية أي أداته التعبيرية - التواصلية، كما هو معروف، ولهذا فقد كتبت كل من الرواية واليوتوبيا باللغة النثرية، فاللغة الشعرية، كما هو معرف أيضاً، كانت لغة «الكلاسيك» لغة البلاط والسادة والكهنة، أما اللغةالنثرية فهي لغة المعاش والأفراد العاديين، ولهذا فلقد كتبت كل من الرواية واليوتوبيا بلغة المعاش اليومي ولغة الرجل اليومي، أي لغة الشعب الصاعد إلى مكان الصدارة في التاريخ آنذاك، أضف إلى ذلك أن لغة - العلم والكهنة- في أوروبا كانت اللاتينية، ولهذا فقد كتبت الرواية باللغات الشعبية، وكذلك اليوتوبيا باستثناء يوتوبيا توماس مور / ١٥١٦/ التي سرعان ماترجمت إلى لغات الشعوب الأوروبية.

$\frac{١}{٣}$

ظهرت الرواية/ اليوتوبيا مع بداية الطموح الانساني/ البورجوازي الجديد لتغيير الواقع، والواقع هو مكان وزمان متعينان، ولهذا حملت الرواية واليوتوبيا طموحاً لبناء مكان وزمان آخرين ومغايرين للمكان والواقع الاقطاعي في أوروبا. وبدهي هنا أن يرسم الطموح لعالم جديد على شكل مخيلة، يوتوبيا، تأتي على شكل رواية، أو مكان متخيل.

$\frac{١}{٤}$

ولأن أمريكا كانت مكاناً جديداً، وجزيرة أحلام مكتشفة حديثاً، فقد كانت اليوتوبيا هي جزيرة بعيدة مكتشفة، مثل الجزيرة الأمريكية، وربما لهذا كان دون كيشوت يعد سانشو بانسا بجزيرة يحكمها على هواه. أما توماس مور فيتحدث عن بحار زار أمريكا وروى له «اليوتوبيا» فأمريكا كانت حلماً، وقد استمر هذا الحلم اليوتوبي كما هو معروف حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وربما كان إلقاء القنبلتين الذريتين على اليابان، وحرب الفيتنام من علائم بدايات تفتت الحلم الأمريكي، أما الحلم اليوتوبي الذي بزغ في عصر النهضة الأوروبية فسنتابع تفتته فيما بعد، تماماً مثلما سايرت الرواية الأوروبية هذا الحلم اليوتوبي والأمريكي، فنهضت معه وأعلنت تفتته عندما تفتت، فحتى لدى كافكا نجد أن التعبير عن حلمه اليوتوبي كان في رواية اسمها: أمريكا.

بالطبع فقد كان طبيعياً أن يكون المكان الروائي في بداية ظهور الفن الروائي معيناً ومحدداً، فالبورجوازية كانت تناضل على أرض محددة ومعروفة لديها، وطبيعي بالتالي أن يكون الحلم في «لامكان» أي يوتوبيا، تشكل المجتمع القادم غير محدد تماماً .فالمستقبل يبقى مجهولاً، لكن هذا لايمنع البورجوازية من رسم ملامحه من خلال «يوتوبيا» ونحن

نستخدم هنا مصطلح البورجوازية بمعناها التاريخي والثوري، أي ضمن ظروف النهضة الأوروبية، فالبورجوازية كانت تمثل «الشعب» مثلما تمثل نفسها، بل وكانت ترفع راية الانسان، قبل أن تتمزكر أوروبياً في مفاهيمها ونظرتها إلى نفسها وإلى باقي الشعوب والقارات، أما الانفصال بين مصالح الشعب والانسان، ككل، وبين البورجوازية كطبقة، فلم يكن قد حصل أو توضح بعد، والمكان الذي حصلت فيه هذه الأحداث كان أوروبا، وأوروبا وقتها كانت حاملة مشعل التقدم التاريخي في ذلك الزمن. كانت تحمل راية التقدم الانساني الشامل، على الأقل في طموحها وأحلامها، في أفكارها ويوتوبياها ورواياتها.

١
―
٥

ظهرت اليوتوبيا -كاصطلاح وكجنس أدبي - في فترة ظهور الرواية، لكن الرواية قدمت المتخيل باعتباره مكاناً محدداً واقعاً، بينما اليوتوبيا قدمت المكان - الواقع المطلوب والذي هو الصورة / المثال للواقع القائم، كمتخيل، وفي الحالتين، أو في الجنسين الأدبيين كانت هناك علاقة بين الواقع والمتخيل، فالواقع كان يحلم بنقيضه، والحلم كان يريد أن يصبح واقعاً، أي أن يصبح نقيضه أيضاً، وهذه مأساة اليوتوبيا كما سنرى فيما بعد.

الرواية هي المكان - الزمان - الانسان، وقد صار كل ذلك في نسيج علاقات متصورة، أي في مكان متخيل، واليوتوبيا هي الخيال وقد نسج عناصر الزمان والمكان والانسان، وثمة خط واصل فاصل بين المكان كمتخيل، والمتخيل كمكان، وقد وصلت كل من اليوتوبيا والرواية بين هذين الحدين، فهل من علاقة في منطق اللغة العربية بين المكان والإمكان؛ المكان كواقع، والإمكان كقابلية تحول وتغير وتخيل؟!.. على الرغم من أننا لانميل إلى مثل هذه الطريقة في التحليل، فهي طريقة

توصل إلى عكس المراد منها أحياناً. وهل يمكن أن تكون مقولة الامكان، أي المكان كما يجب أن يكون، رداً على مقولة المكان، أي الواقع كما هو؟ وبعبارة ثانية هل تكون اليوتوبيا، الإمكان، رداً على مقولة المكان - الواقع، كما هو، أي، مقولة: «ليس بالامكان أبدع مما كان». ألا تقول اليوتوبيا، في منطقها: نعم بالامكان أبدع مما كان، فهذا العالم ليس هو خير العوالم الممكنة، وأخيراً أليس المكان هو هيولى تشكله مخيلة البشر وأفعالهم على شكل وقائع وأحلام ومجتمعات، وبالتالي فالمكان إمكانية مفتوحة للتشكيل والتكوين.

$\frac{١}{٦}$

تصدر كل من الرواية واليوتوبيا عن إحساس «أليم» بالواقع، يدفع صاحبه إلى رسم هذا الواقع في الرواية، ومضمر رسم الواقع هو الحلم بتبديله، وبالمقابل ترسم اليوتوبيا بشكل علني، بديل الواقع، وهكذا يصبح الواقع في الرواية رسماً، متخيلاً، حلم يقظة جماعية، وتصبح اليوتوبيا حلم يقظة، وواقعاً مرتجى، وبهذا المعنى أليست كل من الرواية واليوتوبيا حلم يقظة جماعياً؟!

$\frac{١}{٧}$

ترسم الرواية تناقضات وشرور الحياة اليومية، وفي سبيل هدف دفين ومضمر هو انتقاد وتجاوز هذه الشرور والتناقضات، أي أن الرواية ترسم الأحلام المتمناة خلف رسمها للواقع، بينما تقدم اليوتوبيا الحياة اليومية وقد تخلصت من هذه الشرور وهذه الآثام، فكأنها بذلك مضمر الرواية وغايتها، وربما لهذا كان كبار كتاب اليوتوبيا منخرطين في العمل السياسي اليومي، توماس مور، كامبانيلا، فرانسيس بيكون...

مثلما كان كتاب الرواية كذلك منخرطين في السياسة والحروب والاقتصاد... سرفانتس، دوستويفسكي، تولستوي، بلزاك..

١
―
٩

ترسم الرواية مكاناً متخيلاً مداره الزمن الراهن، وحتى ولو كان الروائي يلجأ تقنياً إلى الماضي أو المستقبل، أو الأسطورة، كما في رواية أمريكا اللاتينية، وكذلك اليوتوبيا فهي ترسم مكاناً متخيلاً مداره «بدائل» الزمن الراهن، ولهذا فالزمن الراهن مضمر في زمن اليوتوبيا القادم، مثلما الزمن القادم، مضمر في زمن الرواية الراهن.

١
―
١٠

ترسم الرواية مكاناً متخيلاً أخذ مواده من منجم الواقع المعاش، أي من تفاصيل الزمان والمكان وعلاقات البشر، وكذلك تفعل اليوتوبيا، إذ ترسم مكاناً متخيلاً لزمن آخر، مداره تفاصيل الحياة البشرية والعلاقات الانسانية، وبهذا تكون الرواية يوتوبيا، لكن دون إحالة مباشرة على المستقبل، فإحالة الرواية على المستقبل إحالة مضمرة، وتكون اليوتوبيا رواية لكن عن المستقبل المختلف عن الواقع المعاش، عن الراهن. لكأن مكان وزمان اليوتوبيا هما المكان والزمان المضمرين كبديل عن الراهن في الرواية، ومضمر الرواية هو الحلم بالمكان والزمان والانسان المعلنين في اليوتوبيا، وبهذا تكون الرواية بتقديمها الراهن حلم يقظة قاس، يفسر بعكسه، أي ببشارة، بتحقق يوتوبيا موعودة وربما لهذا يحار كثير من النقاد في تصنيف بعض الكتب مثل دون كيشوت، رحلات كلفر، روبنسون كروزو، فهل هذه من الروايات أم من اليوتوبيا؟ والحقيقة أنه لافرق فيما يبدو، فالرواية هي يوتوبيا، واليوتوبيا هي

الرواية، وهذه «الأعمال» تقدم جوهر هذين الجنسين بوقوفهما - على الحد الواصل- الفاصل بينهما، أي على جوهرهما المشترك.

١
―
١١

أليست قراءة الرواية عيشاً في حلم، حلم يقظة، هجرة إلى مكان وزمان متخيلين، بمعنى آخر، أليست قراءة الرواية عيشاً في «لامكان» واللامكان هو اليوتوبيا، كما في التعريف والمنطوق.

- ٢ -

عن اليوتوبيا المضادة :

٢
―
١

لكن إشراق الحلم البورجوازي الأوروبي لم يستمر، فقد تحقق الحلم البورجوازي، أزيل الاقطاع، وأزيلت السيطرة الكنسية على الضمائر والأجساد، وأتت مدينة الشمس، أي مدنية الطاقة بدل الجهد البشري وتحققت الحرية والمساواة، ولكن أية حرية وأية عدالة وأية مساواة، أين؟ ولمن؟

الحلم اليوتوبي الروائي صار واقعاً، فقد قلّت ساعات العمل، وسيطر العمل والتقنية، وانفتح العالم على بعضه وطار الانسان في الفضاء، وغاص في أعماق البحار واستكشف أقاصي الأرض بل وتحققت الاشتراكية، كما قيل، لكن في كل ذلك، كان هناك شيء ما ناقص، فهاهم العمال مكان الأقنان، وهاهو الذهب والمال قيمة كبرى بدل قيم الحرية والعدالة والمساواة وهاهو الاستعمار والاضطهاد بدل العدالة والمساواة، وها هو القمع الفكري والحيوي مكان الغرائز. ببساطة، هاهي

الملكية، وفي متبذل صورها، بدل مشاعية اليوتوبيا.

نعم هاهي رواية اليوتوبيا مرفوعة على حراب وأسنة البورجوازية، ولكن هاهم البشر أي الناس العاديون، مجرد عمال مستهلكين، وبدل مدينة الشمس هاهم يسكنون في أقبية لاتدخلها الشمس بل وهاهم مجرد «مذلين مهانين» في عالم الرأسمالية ويوتوبيا البورجوازية، أو هم أدوات إنتاج في ظل ماسمي اشتراكية، فلماذا لايراجع الحلم نفسه، ولماذا لاتكتب اليوتوبيا شهادة براءتها واعتذارها بل واحتجاجها وندمها على ماتخيلت فتوهمت، وإذا كانت الرواية مكملة اليوتوبيا وشقيقتها أو وجهها الآخر، فلماذا لاتفعل مثلها كذلك، لماذا لايكتب كافكا يوتوبيا - روائية مضادة للرأسمالية ويوتوبياها، ولماذا لايكتب جورج اورول ويلجاكوف روايات ويوتوبيات مضادة للاشتراكية ويوتوبياها؟ وإذا كان العلم هو علم البورجوازية وأداتها في تحقيق يوتوبيا وقهرها للبشر، فلماذا لايكتب تشابيك رواية- يوتوبيا «حرب مع السمندر» فاضحاً أخطار هذه الأداة، أو هذه التكنولوجيا؟؟؟

فكيف بدأت اليوتوبيا والرواية المضادة، كيف بدأت رحلة العودة عن اليوتوبيا وكيف عادت اليوتوبيا لتأخذ مكان الرواية، أي لتسجيل الخاص الراهن بعد ماكانت تسجل أمل المستقبل، كيف عادت اليوتوبيا إلى توأمها الروائي، فاتحدتا.

٢
___
٢

كانت كل من اليوتوبيا والرواية تحملان آمال بورجوازية تقود الحركة التاريخية في أوروبا، وكانت هذه الحركة تبدو وكأنها حركة الانسانية فبدأتا مع عصر النهضة، وحملتا قيمه، صورتا واقعه ورسمتا أشواقه وأحلامه، وواقع عصر النهضة كان سيطرة الكنيسة والاقطاع والجهد اليدوي وكثرة الحروب والانشقاقات والمجازر الدينية، كان عالم

قهر وبغضاء وعنف وتسلط وتعب، عالم ثالوث الاقطاعي - الفارس - الكاهن، ولهذا كان طبيعياً أن تكون رواية دون كيشوت حلماً بالعدالة والحرية وكفاحاً في سبيلهما، وأن تكون يوتوبيا توماس مور دعوة إلى التسامح الديني وإلى المساواة والحرية والانسانية، أما يوتوبيا (مدينة الشمس) لـ كامبانيلا، فقد كانت دعوة إلى سيادة العلماء وسيطرة العلم، والعلم يقود إلى التكنولوجيا كما هو معروف وهل من رمز أكثر دلالة للحرية والطاقة من الشمس؟ ثم ألا تستطيع طاقة الشمس أوالتكنولوجيا أن تكون بديلاً للجهد اليدوي والطاقة الانسانية المضنية وأن توفر للناس أوقات فراغ يستثمرونها في الراحة والمتعة والمعرفة؟ أليس هذا هو حلم الاشتراكية، ثم الشيوعية أو المشاعة، وربما لهذا دعيت يوتوبيات هذه المرحلة بالاشتراكية الخيالية من قبل أنجلز والماركسيين.

٢
―
٣

كانت الجنة بديلاً للفردوس المفقود، كانت مكافأة للانسان بعد أن يقضي مدة عقوبته أو اختباره الأرضي على الخطيئة التي من أجلها طرد من الفردوس المفقود، ثم يعود إلى الجنة بعد أن يقضي مدة العقوبة بسلوك مقبول، هذا ماكانت الكنيسة تريد أن تقوله، لكن في لحظة ما، أو في مرحلة ما، بدأ يتأكد للانسان أن لاحياة له إلا حياته في هذه الأرض، وأن العودة إلى الفردوس المفقود باتت مستحيلة، وأن قضية الحياة الأخرى وجنتها مشكوك فيها، وبالتالي على الانسان أن يبني جنته في هذه الأرض، وبجهده وطاقته، وهل اليوتوبيا إلا جنة كاملة يريد الانسان أن يبنيها في هذه الأرض، وإن كانت متخيلة في مكان آخر غير المكان الذي ترسم الرواية حالته وموضعه وتسجل أحلامه؟.. ثم أليس تاريخ الانسان تطوراً وتقدماً وارتقاءً؟ فلم لايكون هذه الارتقاء تقدماً نحو اليوتوبيا، أو نحو الجنة المفقودة - المستعادة، أو نحو العدالة والحرية

والمساواة، ثم نحو الشيوعية، والطريق إلى ذلك بدت سهلة: إذ يحدد مخطط هذه الجنة: اليوتوبيا بالشكل التالي:

- عدم وجود الملكية «المشاعية».
- نزع سيطرة الكنيسة أو غيرها عن الضمائر والأجساد.
- إطلاق طاقات الانسان وتحريرها من الاقطاع - العمل الحر -
- استخدام العقل والعلم.
- أوقات أكثر «للحياة»

أما اليوتوبيا الدينية فقد حلت كل ذلك بمفهوم واحد هو «الخلود في الجنة» وبعبارة محددة: على الانسان أن يمسك مصيره بيده، وأن يبني جنته بجهده، وأن ينحي الوسيط، أي الكنيسة، جانباً ولهذا أتى لوثر والبروتستانتية، ومعهما أتت الرأسمالية كما حلل ماكس فيبر بداية عهد الرأسمالية، أي مع صعود اليوتوبيا والرواية. وفعلاً حصل شيء من ذلك، فالبروتستانتية أوقفت سيطرة الكنيسة عند حدها، وبدأت آلية الرأسمالية في بناء «الجنة البورجوازية على هذه الأرض، ثم أتت الثورة الفرنسية فقطعت رأس الملك، ظل الله على الأرض» والطبقة البورجوازية نقلت الفلاحين محملين على قاطرات بخارية، وليس سيراً على الأقدام، من عمل الأرض في الريف، وكدستهم في معامل المدن وأطلقت إمكانيات العقل في الكشف والاختراع، وخلال ذلك كانت الرواية تسجل هذ المراحل، وهذه العملية التاريخية، بينما كانت اليوتوبيات ماتزال تحلم، لكنها في هذه المرحلة بدأت ترتاب، والرواية نفسها وهي ترسم المشهد، وتفترض بديله، بدأت ترتاب، وربما تعترض. هكذا يمكن أن نقرأ روبنسون كروزو لدينال ديفو كتحرير للفردية، ومول فلاندرز لدينال ديفو أيضاً، كمثال للحريات الفردية الباحثة عن مصير ها في غابات المدن وبين أدغالها، وبلزاك، نعم بلزاك يمكن أن نقرأه، كاعتراض على بورجوازية شرهة مستكلبة متنكرة، لكن لافكاك منها، وهكذا بدأت الاعتراضات على اليوتوبيا التي رسمت بريشة توماس مور وكامبانيلا

والآخرين، وتقدم سويفت في «رحلات كفلر» ليعلن، منذ البداية تقريباً، الآمل في شفاء هذا الانسان الجاحد، ولاأمل في حلمه، مثلما تقدم روسو ليقترح العودة إلى ماقبل هذه الفضيحة التي قادت إليها الأحلام البورجوازية، ليقترح عودة الانسان للدبيب على أربع قوائم، كما عابثه فولتير الذي كان يرى أن هذا العالم ليس خير العوالم.

فهل تجاوز العقل نفسه، وهل انكشف الحلم عن كابوس؟ هل أفلتت طاقة الشمس من عقالها ياسيد كامبانيلا؟

٢
―
٤

وهذا مايقوله أدب اليوتوبيا المضادة، والمرسوم هذه المرة على شكل روايات مباشرة، فليس ثمة مجال للتلميح، ثمة مجال للواقع العاري فقط، وبعد نشيد مديح البورجوازية الذي أنشده ماركس عند وصف مرحلة انتصارها، وتحقيقها ليوتوبياها في البيان الشيوعي، أطلق ماركس طلقته أو تهديده: هذه يوتوبيا زائفة على الرغم مما فعلت، نعم حققت البورجوازية يوتوبياها، حققت أحلامها في التسامح والحرية، وحققت أحلام كامبانيلا في سيطرة العلم والعلماء وحققت أحلام فلاسفة التنوير في العدالة والحرية والمساواة، ولكن كل ذلك تحقق ناقصاً، فالمساواة هي مساواة في الاستغلال، وسيطرة العقل والعلم كانتا لمصلحة طبقة معينة، والحرية مقيدة بعدم المقدرة الاقتصادية وبظروف العمل في المصنع، والانسان الجديد هو مجرد مستهلك، وقارة الحلم في حياة العمال البائسة، شبيهة بالكابوس، ولذلك فلابد من يوتوبيا أخرى، فاليوتوبيا السابقة كانت خيالية، وأتى أوان اليوتوبيا الاشتراكية العلمية، يوتوبيا لايعيش فيها الانسان كما تصوره روايات ديكنز وبلزاك، أي في هذه اليوتوبيا الفضيحة في القرن التاسع عشر، أما الصوفيون من جهتهم فقد ارتاحوا من هذا العناء باكراً فألغوا الزمن والواقع والتاريخ

وحققوا اليوتوبيا في الذهن والوجد وشهود الحضرة. وكل فرد يستطيع تحقيق اليوتوبيا الصوفية وقتما وأينما شاء.

٢
—
٥

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت يوتوبيا البورجوازية قد تحققت، وآفاقها قد ظهرت، وكانت روايتها قد كتبت، بل وامتدت إلى كل العالم تقريباً. وفي النصف الأول من القرن العشرين ومع الحرب الأوروبية - العالمية الأولى، كانت رائحة الفضيحة قد بدأت تفوح وتكشفت يوتوبيا البورجوازية عن استغلال العمل والعمال واستعمار الشعوب الأخرى، أو إبادتها كما حصل للهنود الحمر في أمريكا، كما تكشفت أخطاء ومساوئ سيطرة التقنية التي صنعها الانسان على الانسان ذاته، ثم والأدهى من ذلك وصول الانسان إلى حالة «علمية» يستطيع معها أن يفني الحياة على هذه الأرض بعد الحرب العالمية الثانية، فقد كانت قنبلتا هيروشيما وناغازاكي مجرد مثال ونذير. فأية يوتوبيا هذه جديرة بالعيش خارجها؟ أو أية رواية جديرة بعدم الرواية.. وهنا بدأت رواية أخرى مثلما بدأت يوتوبيا أخرى

٢
—
٦

روبنسون كروزو أبحر في رحلة العودة من حريته وجزيرته، وعمل في إحدى دوائر الحكومة ضائعاً بين الملفات ثم في معمل، وتكدس كسمكة سردين في قبو وعاش غريباً عن الآخرين في مدينة تحصى بالملايين، ومحروماً من شمس كامبانيلا، وهل جوزيف ك عند كافكا إلا فردية روبنسون كروزو وقد سحقت واستهلكت وقيدت؟ وهل العالم الروائي لدى كافكا إلا يوتوبيا هجائية مضادة ليوتوبيا الرأسمالية

المتحققة، كانت قصص كافكا تتكلم عن لامكان، هو في ذاته مكان معاش، وهل ك هذا الغفل هذا «الرجل بلا صفات» إلا واحد منا؟ فهل تكون اليوتوبيا، وهل تكون مدينة الشمس هي روايات ديكنز والرواية الأمريكية في الثلاثينات بما تقدمه من بؤس وفقر، هل تكون الحياة في الهند مثلاً هي يوتوبيا البورجوازية؟

٢
—
٧

حسناً إذا لم تعجبكم الرأسمالية البورجوازية فهناك مجتمع جديد، هناك يوتوبيا مضادة لهذه الرأسمالية، ولكن هذه المرة بالمعنى الايجابي، هناك اليوتوبيا التي تبنيها الاشتراكية، فبينما كانت الرواية الأمريكية تصف الفقر الأمريكي، كانت الرواية في روسيا تبني الاشتراكية، واليوتوبيا الاشتراكية علمية ياسادة، بدل اليوتوبيا البورجوازية الخيالية، فأخيراً آن للانسان اليومي أن يجد جنته المحققة على هذه الأرض، والعلمية.. كفيلة بذلك.

قامت الثورة الاشتراكية العلمية وشعارها نقل اليوتوبيا من خيال إلى علم، أليس العصر عصر العلم؟.. رفعت الرايات الحمراء، وتم تجميع الفلاحين وبناء الصناعة الثقيلة، وأتت الاشتراكية العلمية وليس الخيالية، وللحظة بدا وكأن الجزيرة الموعودة قد لاحت في الأفق، وهاهو سانشو بانسا، رمز الانسان العادي، يحقق مرامه ويحكم جزيرته، بعد أن تبع مخلصاً معلمه الحالم بالعدالة، دون كيشوت دي لامنشا، الفارس الحزين الطلعة، ربما يأساً من نفسه ومن حلمه.

لكن الاشاعات التي مالبثت أن صارت معلومات مؤكدة. أظهرت أن مافعلته يوتوبيا هذه الاشتراكية العلمية قريب جداً مما فعلته يوتوبيا البورجوازية، فالحرية ابتعدت بدل أن تقترب، والمساواة أبانت عن امتيازات وطبقات وحرمان، والحرية تبدت عن سيطرة وقمع وهنا كانت

الخيبة مرة، وكانت اليوتوبيا المضادة قاتمة، واقرأوا روايات جورج ارول، ورواية زامياتين «نحن» ورواية «المعلم ومرغريتا» لبولجاكوف لتعرفوا كم كانت الخيبة مريرة وقاسية في يوتوبيا الاشتراكية العلمية، ولكن اقرأوا كارك تشابك في رواية «حرب مع السلمندر» لتعرفوا كم هي مخيبة هذه «العلمية» كلها.

لكن قبل كل ذلك، بل ومع كل ذلك، تأملوا ما حصل للحلم الاشتراكي أواخر القرن العشرين وتفكروا في بؤس نهاية «رواية» يوتوبيا الاشتراكية، حتى لو قلتم: ذلك إلى حين، فكما تكشف الحلم البورجوازي عن مأساة، فقد تكشف الحلم الاشتراكي عن مأساة مشابهة تقريباً، على الرغم من أن الثاني أراد أن يكون نقيضاً للأول، أوهكذا قال.

– ٣ –

لماذا حدث ماحدث ؟

«اليوتوبيا حقائق قبل أوانها»
لامارتين

٣
―
١

في البداية رسمت الرواية واليوتوبيا مكان وزمان البورجواز ية القادمين على أنهما زمان الحرية الانسانية ومكانها، أو على أنهما زمان الانسان المتحرر، فقد بدأ هذان الجنسان الأدبيان مع بداية العصر الحديث، ونحدد العصر الحديث باكتشاف أمريكا، فرافقا هذا الانسان الجديد، عكس الشعر أو المسرح اللذين يعودان لمرحلة أقدم، ولكن عندما تكشف حلم عصر النهضة على أنه تحقيق لحلم البورجوازية فقط، فقد أتت اليوتوبيا المضادة، وهكذا أعلنت اليوتوبيا في مسيرتها التاريخية أنها قد تقلصت إلى حدود الايديولوجية، أي إلى مجموعة من الرؤى المحددة بعصر معين، وما كان حلماً مطلقاً بحرية مطلقة، ماكان مكاناً وزماناً مختلفين، أي يوتوبيا، تحول إلى مجموعة من النظرات والأفكار والتخييلات التي تحدد الانسان وتحده في زمانه ومكانه، أكثر مما تحرره، أي تحولت اليوتوبيا المتقدمة والمقدمة كحلم إنساني شامل إلى ايديولوجية بورجوازية، محددة بسيطرة البورجوازية والتقنية على العالم، ومنتشية بيوتوبيات جديدة تصنعها معتمدة على أداتها المفضلة: العلم، والتكنولوجية، وهكذا من جول فرن إلى هـ –جـ ولز إلى قصص الخيال العلمي كلها، إلى فلسفة برتراندرسل المنتشية بالعلم، في كل ذلك أعلنت البورجوازية الأوروبية أن يوتوبياها إنما تتحقق في العلم والسيطرة على الطبيعة، ولابأس أن تكون الشعوب الأخرى جزءاً من الطبيعة، أي

موضوعاً للسيطرة، أو أدوات مستهلكة لمنتجات هذه الطبقة التي نصبت نفسها بقدرة أدواتها ومعرفتها، ملكة وسيدة على التاريخ والعالم، وإذا كان ذلك كذلك، لماذا لايغلق ملف المسألة كلها، فتغلق ذلك الملف الذي يذكرها بأصلها وتاريخها وشركائها؟؟ لماذا لاتغلق الملف وتعلن أن التاريخ قد انتهى، وما أجمل نهاية اللعبة عندما يكون المرء في القمة، والآخرون في الحضيض..

٣
―
٢

هل هي لعبة أزلية: كل يوتوبيا تتحول إلى ايديولوجية؟ ألم يحصل هذا لكل الأساطير والأفكار والأديان والفلسفات؟ وهل هو قدر كل حلم يتحول إلى واقع؟ مثلما هو قدر كل واقع أن يحلم بالكمال؟ هل هو قدر أن تتحول اليوتوبيات إلى روايات واقعية باردة تسرد البؤس، وترسم مشاهد الشقاء والخوف والخيبة البشرية، بينما تظل الروايات تحلم باليوتوبيا؟

قد يسمي بعضهم هذا جدلاً أو تطوراً وتقدماً، أو تحققاً للتاريخ وللروح على لغة هيجل، وربما يسميه آخرون عبثاً، لكن آلام الانسان في هذا الجدل، أو في هذا العبث، أو في تحقق هذه الروح الالهية - الشيطانية، تبقى مستمرة وجديرة بالتأمل، بل والتعاطف، وربما الشفقة، ولهذا فربما ثمة حاجة للعبة أخرى، وعلى الأقل اسم آخر لهذه اللعبة التي قد تكون مجيدة، لكنها بائسة، تماماً مثل مغامرات دون كيشوت، ويبدو أن أسماء الرواية واليوتوبيا، التاريخ، الايديولوجية، الفردوس المفقود والجنة الموعودة، الجنة والشيوعية، الروح، ماكانت قادرة على تغطية هذه الفضيحة: فضيحة الألم والعذاب الانساني تحت كل الأسماء والمسميات، بالألم تلدين، نعم، ولكنك ياسيدتي، ياأمي، تلدين مسخاً، وسدى يذهب ألمك: هذه هي روايتك، وهذه هي يوتوبياك، فابحثي عن

طريق آخر.. ولادة أخرى، ألم يقل دوستويفسكي أن البشرية ستقدم لله سبحانه وتعالى رواية دون كيشوت ككشف لحاسبها وحياتها في هذا العالم الأرضي.

٣
―――
٣

كان لليوتوبيا وللرواية حركة ومسار اكتشاف أمريكا وصعود البورجوازية الأوروبية وظهور العقلانية، إضافة إلى أنها وقائع حدثت في الفترة ذاتها.. (الرواية – اليوتوبيا – «اكتشاف أمريكا» – صعود البورجوازية – ظهور العقلانية)، ولهذا كانت اليوتوبيات تفترض جزيرة مجهولة في المحيط، بل وتتحدث أحياناً عن أمريكا مباشرة، ومن توماس مور الذي حدثه عن يوتوبياه بحار إلى أمريكا، إلى رواية أمريكا لكافكا، مروراً بكتاب المؤرخ الفرنسي الكسي دي توكفيل: «الديمقراطية في أمريكا» كانت أمريكا حلماً يوتوبياً، ورواية تحلم، لكن كما خيب الواقع الحلم اليوتوبي عموماً، فقد خيب التاريخ الحلم الأمريكي خصوصاً وتحولت اليوتوبيا إلى كابوس البورجوازية للشعوب، مثلما تحولت أمريكا إلى كابوس في العالم اليوم، شرطي النظام العالمي المأجور، هذا هو الحلم الأمريكي اليوم وهذه هي تحولاته ومصائره.

٣
―――
٤

ليس للتاريخ معنى، وليس للتاريخ غاية، وإن كان له منطق وآلية، وما بناء اليوتوبيا – والأحلام وكتابة الروايات الحالمة إلا التفاف وهروب من هذه الحقيقة الخاوية كالعدم، إنها أستار للفضيحة حتى لاتنتشر الرائحة، لكن يبدو أن الانسان، وإمعاناً في تجاهله لفضيحته وخوائه وانعدام غائتيه ومعناه، أو محاولة منه للسترة يريد أن يكون له، أو

لتاريخه ولوجوده معنى، ولهذا فهو يبني يوتوبيات ويحلم آملاً إضفاء المعنى والغائية على مالامعنى له، آملاً الكرامة من خلف الفضيحة، فالتاريخ، كحركة فيزيائية، ليس له معنى، وبالنسبة للزمن المقاس بحركة الشمس في كوكبنا، تتساوى الأشجاروالأحجار والبشر، فعليها كلها تشرق الشمس وتغرب، تصحو وتمطر، وربما من هنا أتت فكرة الرواية واليوتوبيا، فالرواية عندما تكون قصة وسرداً تحتاج إلى غاية ونهاية، واليوتوبيا عندما تكون حلماً يريد تحقيقاً، تصبح، كقصة بلا بداية ونهاية، أي بلا معنى، ويحتاج نهاية، وهكذا يجب أن تكون هناك غاية للوجود البشري، هذه الغاية هي تحقيق الحلم وإكمال الرواية، لكن مأساة عصرنا، وربما مأزق الرواية واليوتوبيا بل والايديولوجية، إن ماكانت تبشر به قد تحقق، فأظهر وبيّن وأعلن أن الفضيحة مستمرة، وأن القصة بلا نهاية سعيدة، وأن اليوتوبيا هي لامكان، وقد تبين اليوم أن هذا اللامكان هو «لاوجود» وأن كلاً من الرواية واليوتوبيا تحققتا ناقصتين، أو منكسرتين، وفي حالة إنهاك إنساني يجعل الانسان، المعاصر على الأقل، غير قادر على تصور أي يوتوبيا أخرى، بعد أن بدأ يرى أن أي يوتوبيا مصيرها الايديولوجيا، وكل ايديولوجيا حدود وتحديد، وكل حلم مصيره الواقع، وكل واقع قيود ونقصان، فلماذا هذه الحركة العابثة التي لاتحتوي في داخلها أي معنى؟ لكأنها مراوحة في المكان، فهل تكون كل الروايات واليوتوبيات مبشرة بما لايتحقق؟ هل تكون كذبة وخدعة ووهماً، مثلها مثل الايديولوجيات وأحلام اليقظة والجنات المفقودة والموعودة والأرواح التي تتحقق في تاريخ لايتحقق؟

$\frac{٣}{٥}$

ألا يمكن – إذن – تحويل اليوتوبيا إلى واقع، ووضع نهاية سعيدة لهذه الرواية؟ ذلكم سؤال الأديان، وسؤال الشيوعية، وسؤال الأحلام،

تلك أوهامها على مايبدو، فإلى الآن لم يتحقق شيء، ويوتوبيا العالم الآخر لاتعني الانسان في هذه الحياة الدنيا، وربما لهذا تبقى الرواية شكلاً مفتوحاً على حد قول باختين، أي يوتوبيا للتخيل، ومع الأسف، فهذه اليوتوبيا ليست للعيش كما يبدو، بل هي أقرب إلى أن تكون آلية نفسية جمعية تساعدنا على التوازن في عالم فقد عدالته ومعقوليته وهدفه، إنها سراب، أو كالسراب.

٣
―
٦

لكن، وبعد أن حدث ماحدث، وبعد أن كشفت اليوتوبيا التي ظهرت في عهد صعود البورجوازية عن كل آفاقها ووقائعها وحدودها، هل تنتهي اليوتوبيا، اليوتوبيا كـ «مبدأ أمل»؟ ألا نستطيع أن نتحدث عن اليوتوبيا الكلية، اليوتوبيا المفتوحة، تماماً مثلما نتحدث عن الشكل المفتوح للرواية والمستقبل، بل والتاريخ؟ ألا نستطيع أن نتحدث عن اليوتوبيا والرواية والمستقبل كرغبات مشروعة لدى الانسان لتجاوز الواقع أو تغييره، نحن هنا لانتحدث عن هذه اليوتوبيا أو تلك، لانتحدث عن الدين أو الأسطورة، عن الصوفية أو الاشتراكية، بل نتحدث عما يوحِّد وعما هو مشترك في منطق التفكير والرغبة عند هؤلاء، عما يجعلهم مبدأ كليا، أو عن الكلي والمشترك بين كل هذه اليوتوبيات، وهذه الروايات، ترى ماهو الكلي والعام في اليوتوبيا؟ وما هو الخاص، ماهو الحلم وما هو الواقع؟ ماهو المجرد وماهو المشخص في هذه اليوتوبيات والأفكار والرؤى والأحلام والأديان والعلوم التي أنتجتها البشرية عبر تاريخها القاسي، والطويل؟

يبدو أن التفكير، أو قل الخيال اليوتوبي من سمات الوجود البشري، ولهذا فهو غير زمني، وإن بدا «متحققاً» في الزمن، ولأنه ماإن يتحقق حتى يتجاوز نفسه على شكل حلم وخيال ويوتوبيا أخرى، ماإن

تكتب رواية مرحلة ما، حتى يشرع في كتابة رواية المرحلة التالية، ما إن تتحقق لحظة، حتى تأتي لحظة زمنية أخرى، بحيث يبدو الزمن تسرياً وأملاً، ولهذا فاليوتوبيا محايثة ومزامنة للانسان فيما يبدو، وكالانسان هي خيال وحلم، هي رواية ومشروع غير مكتملين ابداً، واكتمالها، كما في كل اكتمال، هو موتها، تماماً كما هو اكتمال اللحظة الزمنية في عبورها.

٣
―
٧

كان هيجل يتحدث عن انكشاف الروح عبر التاريخ، وتحقق اليوتوبيا باكتمال هذا التحقق التاريخي للروح، لكن التاريخ يبدو للانسان المعاصر اليوم مشروعاً غير قابل للانجاز، ويوتوبياه لن تقف عند حد، فلهذا فروحه غير قابلة للانكشاف الشفاف، واسفاه، بل تبقى - هذه الروح - عصية على الامساك أو الرؤية، ولهذا بدا كشف الروح التاريخي، وهو أمل هيجل ويوتوبياه، وكأنه اسدال مزيد من الستور، وأبان اكتمال الرواية الهيجلية للتاريخ عن نقص مريب في هذه الروح، وربما أبان أنها وهم، وخاصة عندما تحققت أو «انكشفت» هذه الروح أو اليوتوبيا الهيجلية على شكل «الدولة».

أما لدى ماركس التلميذ النجيب في المدرسة الهيجلية كما هو معروف، فاليوتوبيا ليست كشفاً، إنها تحقيق وإنجاز، لكن اليوتوبيا التي انتسبت لأفكار ماركس، عانت من الذي عانت منه يوتوبيا كشف الروح لدى المعلم هيجل، ومصير الدولة الروسية التي تحقق بها الحلم الاشتراكي، لم يكن أفضل من مصير الدولة البروسية التي انكشفت أو اكتمل عندها الروح الهيجلي، فبقي الانجاز الماركسي ناقصاً، مثلما بقي الكشف الهيجلي مستتراً، وفي الحالتين أفاق الانسان على رواية مفتوحة غير منجزة، ويوتوبيا باردة وقاسية بل ورهيبة، رهبة الرأسمالية

والستالينية. على كل فيوتوبيا الدولة الرأسمالية ويوتوبيا الدولة الستالينية الشمولية هما من مصنع واحد هو مصنع الدولة الهيجلية كما هو معروف، فهل من أمل في يوتوبيا أخرى لاتتحقق بالشكل الذي تحققت به اليوتوبيا التي ظهرت في عصر صعود البورجوازية الأوروبية؟ يتمنى المرء أن يأمل بالايجاب، وإن كان منطوق ومفهوم اليوتوبيا لايساعد على زرع «مبدأ الأمل» أو زرع مبدأ «تحقق الأمل» على الأصح، لكن ماحيلتنا مادام الانسان مثابراً على استيلاد وإنبات هذا المبدأ، وهل يستطيع الانسان أن يبقى أو أن يتوازن روحياً وحياتياً دون هذا المبدأ، هل نستطيع أن نطالب الانسان بألا يحلم، والسجين بألا يأمل العفو والحرية؟

٣
―
٨

دخلت البشرية كلها التاريخ بعد اكتشاف أمريكا، وبزوغ عصر العلم والتقنية، وربما أجبرتها الرأسمالية على هذا الدخول والاندفاع في وحدة العالم، لكنها دخلت وانتهى الأمر، وصار المستقبل الانساني واحداً، وهذه المرة لن تكون اليوتوبيا يوتوبيا البورجوازية الأوروبية الصاعدة والمسلحة بالعقل والعلم ضد الكنيسة والاقطاع وشعوب العالم الأخرى فقط، هذه المرة، ستكون اليوتوبيا يوتوبيا البشرية بكل شعوبها وطرق تفكيرها، فعهد الحضارات المغلقة والمصائر المنفردة للشعوب مضى، للأبد، فمنذ اللحظة التي وحدت فيها الرأسمالية العالم صارت اليوتوبيا هي يوتوبيا الهندي مثلما هي يوتوبيا الأوروبي، وستكون يوتوبيا العربي مثلما هي يوتوبيا الصيني والأمريكي اللاتيني، ستكون يوتوبيا العقل مثلما هي يوتوبيا الحلم، وبعبارة جامعة ستكون اليوتوبيا، أو بدأت تكون، في التفكير البشري يوتوبيا الانسان الشامل، وشاملة للانسان على هذه الأرض، ولهذا فالعمل في سبيلها لن يكون حكراً على قارة أو شعب أو ثقافة، والحلم لن يكون جزئياً أو إقليمياً بعد اليوم،

الحلم سيكون على سعة الكرة الأرضية، وربما العالم والوجود، والحالمون هم البشر على هذه الأرض الأرضية، وربما كان معهم كائنات العوالم الأخرى، إن وجدت، هذا إذا كانت تفكر على طريقتنا، أو إذا كان لنا حق التكلم باسمها، أما إذا كانت هذه اليوتوبيا، الجنة، الحلم، سوف تتحقق، أم لا فتلك مسألة أخرى كما علّمنا الماضي، ويبدو أن الجنة، أو اليوتوبيا، هي الحلم بها، هي الطريق إليها، فإيثاكا هي الطريق كما قال الشاعراليوناني المعاصر كاكافيس، والانسان يظل.

«يعلل» النفس بالآمال «يرقبها»

ماأضيق العيش لولا فسحة الأمل

كما قال شاعرنا العربي القديم. أو أن علينا، كما قال وليم جمس:

«على الرغم من أن الماضي كان يعلمنا باستمرار أن جميع الغربان سوداء، يجب ألا نوقف البحث عن الغراب الأبيض».

٣
―
٩

سنتتبع – إذن – الوقائع التالية في تزامنها، آملين كشف ترابط آلياتها وحركتها ومآلها منذ البداية، وحتى اليوم، وهذه الوقائع المتزامنة هي:

١– ظهور الفلسفة العقلانية في أوروبا.

٢– صعود الطبقة البورجوازية الأوروبية حاملة بـ ومتصورة لعالم جديد انسانياً واجتماعياً.

٣– اكتشاف عالم جديد جغرافياً هو أمريكا.

٤– صعود الانسان العادي – إلى مسرح الحدث التاريخي.

٥– بداية ظهور السرد الروائي وسماته الجديدة نوعياً هي:

أ- التركيز في موضوع الفن وغايته على الحياة اليومية: واقعاً وحلماً.
ب - استخدام اللهجات الدارجة في التعبير، وهي لهجات سرعان ماتطورت إلى لغات بطبيعة الحال.
جـ - انفصال الفن الجديد عن الملحمة والشعر.
د- بروز الذات الفردية وانشقاقها عن المجتمع والقديم السائد.

وتلك عمليات مترابطة فيما يبدو، فإذا كانت الحياة اليومية مداراً جديداً للفن، فلن يكون هناك مكان «للأبطال» والالهة، وسيأتي نثر الحياة اليومية، أي لغة التفاصيل والتخاطب والعيش، وستحل لغة الشعب، مكان لغة البلاط والكهنة والنبلاء، ستحل لغة النثر بتفاصيله اليومية، مكان لغة شعر الغناء والتراجيديا بسماتها من غنائية وبلاغة وتجريدية، إلى آخر سمات فني التراجيديا والشعر وسمات لغتهما، كذلك سيأتي «الفرد» المتحرر مقابل «المجتمع» المحافظ.

ديكارت والعقلانية

الفصل الثالث

حلم ديكارت والعقلانية

٤
١

يروي الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٥ – ١٦٥٠) انه رأى حلماً عجيباً هو رؤيا لعلم رياضي جديد، وقد فسر ديكارت لنفسه هذا الحلم بأنه دعوة لانجاز «علم مدهش» وهذا العلم الجديد المدهش ليس انجازاً لديكارت الفيلسوف فقط، بل كان فيما يبدو حلماً بشرياً – اجتماعياً بقدر ما كان حلماً شخصياً كما تحقق فيما بعد، وليست هي المرة الأولى في التاريخ الانساني التي تتخذ فيها حوافز ودواعي الأعمال الفكرية شكل حلم أوهاتف في المنام لشخص ما، فقد سبق للخليفة العربي المأمون أن رأى في الحلم هاتفاً يدعوه لترجمة الفلسفة اليونانية وعلوم الأقدمين الى اللغة العربية، فكان ماكان من نهضة وحضارة عربية قديمة.

حلم ديكارت كان «حلماً رياضياً» والرياضيات هي العلم اليقيني الأمثل في مواجهة العلم الكنسي، أضف الى ذلك ان للعلم الرياضي فائدة في الحياة العملية واليومية، أي يمكن تطبيقه والتأكد من صحته، بل ويمكن استخدام تطبيقات هذا العلم في الاختراعات والاكتشافات التي تفيد الانسان في دنياه، وليس في آخرته، وخاصة في صناعة الآلات والهندسة.

٤
٢

لكن أليس هذا الوجود بكامله أشبه بآلة كبيرة ؟ هكذا يرى ديكارت! ربما يكون الله قد خلقها، وربما اكتفى بضغط مكبس تشغيل هذه الآلة،

فديكارت لم يكن يحب المجادلة في هذه المشكلة، لأن في محاكمة جاليلو عظة وعبرة له ولأمثاله، لكن بالإمكان معرفة آليات وقواعد عمل هذه الآلة، وبالإمكان صناعة آلات «صغيرة» مماثلة لهذه الآلة الكونية و تسير حسب قوانين هذه الآلة الكبيرة، فهذه الآلات بشرية الصنع، هي اذن كائنات صغيرة على شكل آلة الكون الكبيرة، واذا كان الوجود آلة لها قوانينها، فلماذا لا نصنع ضمن هذا الوجود كائنات - آلات تسير بقوانين ؟ وقد أعطى ديكارت معنى لهذه الآلة هو كونها من صنع الله، أو هي من ارادته، أما تفاصيل سيرها فهي آلية تماماً وان كان الله يكتفي بضغط زر التشغيل، كما تقدم.

٤
―
٣

ذلكم هو مضمر فلسفة ديكارت الرياضية، والمسافة قريبة جداً كما هو واضح بين الوجود كآلة، والمجتمع كآلة، فالمجتمع وجود متحقق، وفي الحالتين يمكن ادراك القوانين والاليات المسيرة لهاتين الالتين بوساطة العقل، ولهذا لابد من معرفة القواعد الصحيحة لحسن استخدام العقل ضماناً لحسن تشغيل هذه الآلة، وهذه القواعد موجودة في «مقالة الطريقة» التي كتبها ديكارت، وعنوان كتاب ديكارت الكامل هو «مقالة الطريقة، لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم».

وبالطبع فان استخدام هذه القواعد، يؤدي - كما يرى ديكارت - الى المعرفة العلمية الحقة، ففي هذه المعرفة العلمية الصحيحة سعادة الانسان. وهل السعادة الا العيش في اليوتوبيا، وهل اليوتوبيا الا سعادة متحققة ومعاشة ؟

٤
___
٤

يُعْتبر ديكارت عند مؤرخي الفلسفة الحديثة، أحد مؤسسي التيار العقلاني والعلمي في الفكر الأوروبي - العالمي الحديث، هذا الفكر الذي يبدأ بعصر النهضة الأوروبية، وقد كان من سمات هذه الفلسفة الحديثة منذ نشوئها، ابتداء من ديكارت ومروراً بهوبز، ولوك، وهيوم، وصولاً الى كانت، فهيجل : العقلانية. وكما هو معروف فالعقلانية تناضل ضد سيطرة التفكير الديني المتمثلة في سيطرة الكنيسة أو أي سيطرة غيبية أخرى، وتطالب بالبرهان الرياضي والتجريبي، أي تطالب بالعلم بعد العقل، أداة في فهم وتحويل الطبيعة، مثلما تطالب بالتنظيم العقلاني للمجتمع، وبدهي أن هذه المطالب كانت بدائل مطلوبة للمجتمع القائم، كانت أحلاماً بمجتمع آخر وقد عُبر عنها على شكل فلسفة، وتلك صلة وصل لفلسفة هذا العصر بفكر زمانها، أليست الفلسفة خلاصة زمانها مكثفة في الفكر، كما كان هيجل يقول؟!

٤
___
٥

صفة أخرى للفلسفة العقلانية الا وهي الذاتية أو الفردية، فالفردية من سمات فلسفة عصر النهضة منذ بداية نشوئها، فمن ديكارت الى روسو، ثمة نزعة فلسفية فردية وذاتية؛ فديكارت مثلاً يصوغ فلسفته عبر تأملات وتجارب شخصية قام بها وهو قاعد يتأمل حول مدفأته، والطريف انه كان يصوغ تأملاته وفلسفته بصيغة ضمير المتكلم، وليس بصيغة «القضايا» المجردة والحيادية، وضمير المتكلم هو أوضح وأقصى امكانيات التعبير الذاتي - الفردي، أو التعبير عن الذاتية والفردية.

٤
―
٦

ولكننا هنا نطرح سـؤالاً، أليس هناك من عـلاقـة بين بداية تكلم الفيلسوف بلغة الأنا وضميرها، وبين ظهور دور الأفراد وشخصياتهم وهوياتهم في الحياة العامة، بل وعلى مسرح التاريخ ؟ اليس هناك من عـلاقـة بين ظهور الأنا، أي ظهور الفـرد وذاتيـتـه، وبين ظهـور المشـروع البـورجوازي الفـردي؟. ثم أليس هناك علاقـة بين ظهـور الأنا في المقـال الفلسفي وبين ظهور مفـهوم «البطل» أو «الشخصية الروائية» التي ترى العالم، بل وتريد أن تبنيه حسب وجهة نظرها ورؤيتها وحلمها، مثلما ترى فلسفة «ضمير الأنا»، كلها، العالم من وجهة نظرها، وهو ماتحقق فعلاً في العصر الحديث ؟

أليس هذا هو مضمون ومضمر «الكوجيتو الديكارتي» المعروف «أنا أفكر، أنا موجود» ؟

لنقـرأ هذا النص الديكارتي القـصيـر من «مـقـالة الطريقـة» وعندها يتضح لنا كم هي قوية هذه الأنا الفردية التي لا تريد أن تجبر أحداً على اتباع طريقها، لكنها بالمقابل تحدد طريقها الفردي الخاص باستقلالية فردية ذاتية تامة :

«ليس غرضي هنا أن أعلم المنهج الذي ينبغي على كل امرئ اتباعه من أجل اقتياد عقله على النحو الصحيح، بل فقط أن أبين الطريق الذي سلكته أنا لارشاد عقلي».

٤
―
٧

من ديكارت وانطلاقه من الذات الفردية في اثبات الوجود، أي من تأسيس الوجود على الذات، يبدأ فلسـفيـاً، «البطل» الروائي المسـتقل والذي يرغب في اعلان قيمه الذاتية وأحلامه، وبالتالي المنخلع عن قيم

وطرق مجتمعه العامة والسائدة؛ من ديكارت يبدأ الفراق بين المجتمع والفرد، ومن ديكارت كذلك يتضح نوع وشكل الحلم بمجتمع انساني جديد، أي بيوتوبيا جديدة مغايرة في كل شيء لعالم القرون الوسطى ومجتمعها، ومغايرة بخاصة في فهم وجود العالم، وآلية تسييره، ومن ديكارت يبدأ الشروع في تغيير العالم بدل وصفه، فمن هذا الفيلسوف - الرياضي يترسخ «حق» الفرد في بناء تصور مستقل للعالم، لكن التصور الفردي للعالم كان دائماً، في زمانه - بداية لتصورعام، وهكذا فكل يوتوبيا أو رواية، أو فلسفة، يحققها فرد محدد وفي زمن محدد، لكنها تكون - في حقيقتها- تعبيراً عن آمال وأفكار وتخييلات مرحلة ومجموعة بشرية كبيرة، وربما تلك هي احدى سمات علاقة الفكر والخيال بالواقع.

٤

٨

من ديكارت يبدأ التصور الحديث للعصر الجديد - عصرنا الآن - ومن ديكارت تأخذ الرواية شرعيتها الفلسفية، وتبدأ اليوتوبيا البرجوازية سيرها في طريق التحقق، وتبدأ الشخصية الفردية بالظهور الواثق من نفسه؛ من ديكارت تبدأ الفلسفة الحديثة، وليست هذه التلازمات والتزامنات مجرد مصادفات، بل هي تلازمات أبعاد متعددة لظاهرة تاريخية واحدة تتزامن أبعادها ومعطياتها، هذه الظاهرة هي : تكون العصر الحديث. فلنبدأ بالسمة الأولى لدى ديكارت وهي الفردية، ولنر كيف تعبر عن نفسها بالتزامن مع ظهور«البطل» الروائي أو الشخصية الروائية التي تريد اعلان قيمها بل واعلاءها، بالخروج على مجتمعها وزمانها في سبيلها، إن اقتضى الأمر ذلك، وقد اقتضى. لنبدأ بأول رواية أوروبية كتبت طالما بدأنا بأول فيلسوف حديث، لنبدأ برواية دون كيشوت.

٤
―
٩

لكن قبل ذلك بقيت ملاحظة صغيرة عن ديكارت وبخاصة عن رسالته في المنهج أو مقالته في الطريقة، وهي ان ديكارت كتب هذه الرسالة باللغة الفرنسية، أي باللغة الشعبية العامة والدارجة آنذاك، وليس باللغة اللاتينية، لغة الفلسفة والدين المستخدمتين آنذاك، وكما هو معروف فالكتابة باللغة الدارجة كانت من سمات الكتابة الشعبية، والرواية كانت في طليعة الفنون الأدبية الجديدة التي استخدمت اللهجة أو اللغة الشعبية آنذاك، لكأن ديكارت أراد لمقالته أن تُقرأ «شعبياً» وعلى أوسع نطاق، كما الرواية.ولهذا كتبها بلغة الرواية، أي باللغة الشعبية «الفرنسية»النثرية، وبدهي أن الفلسفة تكتب نثراً، وليس شعراً، ولهذا كان ديكارت أيضاً من مؤسسي النثر الفرنسي الحديث.

نثر بلغة شعبية، معلن عبر ضمير المتكلم وشخصيته، بل رؤيته للعالم، ألم نصبح بهذا قريبين جداً من فن الرواية ولغتها، بل ومن عالمها وتوجهها ؟ وخاصة اذا ما أضفنا الى ذلك ان رؤية ديكارت الفلسفية يمكن اعتبارها تخييلاً وتصوراً للعالم على شكل آلة ضخمة، الا يشابه ذلك العالم أيضاً اليوتوبيا التي تصور «آلات» وعوالم أخرى بديلة، وربما، أفضل من هذه الآلة، أو من هذا العالم ؟ وربما يمكن بها الاستغناء عن«المحرك الأول» وربما استبداله بالانسان ؟ ألا تصبح الرواية بذلك فناً محترماً مادامت تكتب بلغة الفلسفة ؟

لكم كان هاماً وخطيراً ورائداً هذا الرجل المتدثر بفرائه، والقابع قرب مدفأته.. يتأمل، لكنه كان يتنزه بين حين وآخر حاملاً سيفه، مذكراً إيانا بسلفه سرفانتس الذي كان عسكرياً مثل ديكارت، سرفانتس الذي به تبدأ الرواية، مثلما تبدأ الفلسفة الحديثة بديكارت.

دون كيشوت

الفصل الرابع

دون كيشوت*

٥
―
١

تبدأ «المأساة الاسبانية» ورواية دون كيشوت أحد أهم مظاهرها وتعبيراتها، مع مأساة تحطم أسطول الارمادا الاسباني، فقد كان هناك صراع لاقتسام العالم الجديد، والعالم بعد اكتشاف امريكا وعصر النهضة الأوروبية صار جديداً كله، وطرفا هذا الصراع كانا اسبانيا وبريطانيا، وكانت اسبانيا تبدو هي الأقوى، ولذلك فعليها ان تجهز حملة بحرية تقضي بواسطتها على آمال الخصم الانكليزي في منافستها. وكان لابد لذلك من بناء اسطول ضخم يحتل الجزر البريطانية ويوقف الانكليز منافسي اسبانيا في الاستعمار والسيطرة على العالم والسيادة المسكونية، والانكليز كانوا كذلك أعداء الكاثوليكية ومناصري البروتستانت ولكل هذه الأسباب يجب أن يوقف الانكليز عند حدهم، وتحتل بلادهم حتى يقروا بعظمة التاج الاسباني، وهكذا شرع بالعمل في بناء اسطول «الارمادا» وكان ميجل دي سرفانتس من الموظفين العاملين في هذا المشروع، أو هذا الحلم الكبير: الأرمادا، ومن ثم الاستيلاء على الجزيرة البريطانية.

ولد سرفانتس عام ١٥٤٧ – وتوفي عام ١٦١٦، ولكنه خلال ذلك اشتغل مع أبيه الطبيب المتجول كتجول دون كيشوت فيما بعد، وتطوع

---

* نعتمد ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي. جزءان. دار النهضة المصرية ١٩٦٥. القاهرة. وقد ترجم د. عبد العزيز الأهواني الجزء الأول

كعسكري، بل وخاض معركة «ليبانتو» البحرية في سواحل اليونان بين التحالف الأوروبي المقدس وبين الأتراك، حيث أوقف الأتراك عند حدهم وأحبطت آمالهم في التوسع البحري عبر أوروبا، وعاد سرفانتس بيد مشلولة طالما كان يباهي بها، فقد شلت في ساحة الوغى ومعركة الشرف، وبعد ذلك رافق مجموعة من الشعراء والأدباء في الحانات، فكتب اشعاراً استحقت ان يذمها معاصره لوبي دي فيجا، وبعد ذلك تقلبت الظروف بحياة سرفانتس، فسجن أكثر من مرة، واتهم بالقتل ومعاشرة البغايا، وأسر في الجزائر مدة خمسة أعوام، ورسم خطط فرار عديدة، باءت بالفشل كلها، وكتب مسرحيات لم تكن أحسن من شعره مع الأسف، ثم اشتغل في سفارات ومهمات خاصة الى ان اشتغل في تموين «الارمادا» العظيمة، فسجن لسوء ادارته وربما لتطبيقه القانون على أملاك الأديرة، وكانت النتيجة بعد كل هذا العناء انه وجد نفسه وقد قارب الستين وهو لم يفعل شيئاً، وزاد الطين بلة انه دخل السجن في هذه الفترة بالذات.

٥

٢

وبالمقابل كان هناك الملك الحالم بالعظمة فيليب الثاني، حاكم اسبانيا أقوى دولة على وجه الأرض آنذاك، تحكم نصف العالم وتطمح الى حكم الباقي كله، لكن كانت هناك مشكلة بريطانيا والبروتستانت، كان فيليب الثاني ملكاً مطلقاً، مهووساً بالعمل ويقرر حتى التفاصيل الصغيرة في ادارة البلاد، يعيش منعزلاً في قصره، وباختصار كان حاكماً يستمد حقه في الحكم من الاله مباشرة، فهو مندوبه على الأرض، وعليه تحقيق مشيئة سيده المقدسة، لكنه كان الى ذلك تقياً، وحسبك انه بنى دير الاسكوريال، وكان واعياً لواجبه، يحب النظام والطاعة، مقتنعاً

بأنه يؤدي مسؤوليات مقدسة حتى ولو سخر منه رجال حاشيته،وبصريح العبارة انه صورة لدون كيشوت على شكل ملك، لكن اليس كل الحكام في مغامراتهم صورة أولى لدون كيشوت ؟ اليس تصرفاً دون كيشوتياً ان تعد اسطولاً كبيراً – الارمادا – لتغزو جزيرة تحتلها وتحكمها ؟ ولكن الأدهى من ذلك سانشو بانسا، أو الشعب، فلماذا يترك الفلاح أو الشعب حقله وبيته وزوجته ليتبع متحمساً الملك المجنون في مغامراته، وفي خطط الاستيلاء على الجزيرة وحكمها ؟ لماذا تتبع يا سانشو بانسا دون كيشوت في مغامراته الحالمة أو المجنونة، ولا فرق، أليس في كل حلم جنون، وفي كل جنون حلم ؟!

٥
___
٣

كان لطريقة هزيمة اسطول «الارمادا» شكل هزيمة دون كيشوت في مغامراته، فالاسطول العظيم، كان في عام ١٥٨٨ على أهبة الاستعداد، وما ان أقلع حتى صادفته عاصفة كأنها طواحين هواء، وبدل ان يقاتل هذا الاسطول ضد الانكليز، قاتل ضد الطبيعة «وطواحينها الهوائية» هذه المرة، فكان مثل دون كيشوت الذي يحارب طواحين الهواء وبدل ان يعود الاسطول الى بلاده، اضطر للدوران حول الجزيرة الانكليزية طلباً للنجاة، وكأنه دون كيشوت الذي تدور به طواحين الهواء، وبدل ان ينزل جنود الاسطول على اليابسة ليحتلوا الجزيرة الانكليزية، فاجأ الانكليز اسطول الارمادا العظيم بتكتيك قتالي جديد هو القتال على سطح البحر، على السفن، وكأن قيم الفرسان الشجعان في المبارزة على الأرض قد ذهبت، وأتى دور القتال الجديد، قتال بلا فرسان، قتال «بحارة»، فأي انحطاط للقيم هذا ؟! وهكذا هزمت الارمادا وهزم حلم تاج اسبانيا في

السيطرة على العالم، فأي شقاء هذا، وأي انكسار ؟ وأي صدى سيكون له يا ترى في نفس الشعب الاسباني، أو في نفس كاتب فاجأت ذاتها وقد وصلت خريف العمر من غير ان تفعل شيئاً ؟ ومن غير أن تحصد شيئاً إلا الهزيمة الوطنية والهزيمة الشخصية ؟!

٥
―
٤

في السجن بدأ سرفانتس يفكر بكل هذا على مايبدو، بحلم الارمادا العظيمة المهزومة وقد بددته طواحين العاصفة البحرية، وبفيليب الثاني، والعمر الضائع، والحلم الضائع، والأوهام الضائعة – المنجلية، بالوهم والحقيقة، بالصدق والكذب، وبالشعب الاسباني الذي تبع حكامه في مغامرات مجنونة، من المكسيك الى هولندا، الى بحر الشمال، حيث ضاعت الأرمادا العظيمة وتشتتت، فلماذا كل هذا العناء، وفي سبيل ماذا ؟ في سبيل قيم الكاثوليكية أم في سبيل السيطرة على العالم، أم في سبيل حلم نبيل لا أحد يعرف تفاصيله، وربما لا أحد يستطيع تحقيقه، أم في سبيل العدالة الالهية ؟ ربما كانت الصور تتالت في مخيلة سرفانتس وامتزجت بالأفكار العامة وبالتجربة الشخصية، وربما بدا ان في الأمر شيئاً من سخرية المحزون المهزوم، فرداً ووطناً، والذي يواسي خيبته وخيبة زمانه وعمره ووطنه، لكن أبطال هذه المأساة هم ملوك وشعوب، وليسوا مجرد أفراد، فكيف ترسم حيوات وتصرفات الملوك والشعوب على شكل مهزلة ؟ في حين ان لاشيء يليق بالعظماء والنبلاء والالهة والملوك الا التراجيديا، كما قال اليونان ؟ وهل يحق لجندي متواضع مخفق أن يسخر من الملوك والشعوب التي تتبع ملوكها في أوهامها؟!

هل يحق لجندي معطوب،وشاعر صغير، وانسان سجين وخائب، وبصريح العبارة : هل يحق لانسان عادي أن يتدخل برأيه في هذا العالم، عالم الأباطرة والملوك والنبلاء والكهنة ؟ وهل يمكن لهذا التدخل ان يكون على شكل رواية تقرأها العامة ؟!

٥
―
٥

لكن يبدو ان الزمن قد تغير، فالفرد صار يستطيع ان يعلن رأيه كفرد، وكواحد من الشعب فيما يبدو، والشعب يحب الضحك كما هو معروف، ألم يسبق سرفانتس كل من بوكاشيو في ايطاليا (١٣١٣ – ١٣٧٥) ورابليه (١٤٩٥ – ١٥٥٣) في فرنسا في إعطاء مشروعية لحق الشعب في الضحك والسخرية واللعب بكل شيء، حتى بالمقدس ؟ ثم لماذا الخوف من الملوك ؟ انهم بشر، أما الشعب فجانبه مأمون في موضوع الضحك، فالشعب على استعداد لان يضحك على كل أحد، على الملوك، على الآلهة، حتى على نفسه.

٥
―
٦

كانت كتب الفروسية الخيالية ورواياتها شائعة في عصر سرفانتس، لكن لم يكن هناك فرسان على مايبدو، ويقال ان رجلاً عادياً في اسبانيا آنذاك ظن نفسه فارساً، وتصرف على أساس انه فارس، فضحك الناس منه ورموه بالجنون، لكن أليست هذه مأساة الانسان ؟ إنه يظن نفسه على غير حقيقته، وربما يتوهم نفسه أكبر من حقيقته بل

وينسى دائماً ان الزمن يمر فيتغير كل شيء، أليست هذه مأساة الارمادا التي أرادت أن تنزل جيوشها على أرض بريطانيا، لكن تغير وتقدم الملاحة والبواخر وفنون القتال، أجبرها على القتال في البحر، وهكذا، استخدمت اسلوباً مضى زمانه، فهزمت أحلام تاج اسبانيا في السيطرة على العالم بهزيمة الارمادا، هذه القلعة البحرية العظيمة، لكن القديمة،وليست الارمادا وحدها هي التي هُزِمت، بل سرفانتس نفسه فقد عمله في تموين هذا الأسطول بعد ان هزم، ثم وزاد الطين بلّة انه دخل السجن، فأية أحلام هذه وأية أوهام، وأي عمر ضائع في ملاحقة مالا يتحقق؟

٥
―
٧

ربما تداخلت الصور والأفكار هكذا في ذهن سرفانتس وهو قابع في سجنه يتأمل في حياته وتاريخه ويتأمل في تاريخ وواقع بلاده، وملكه والارمادا العظيمة، يتأمل في أحلامه وأحلام تاج وشعب اسبانيا، وبكل الحوادث التي شارك بها أو سمع عنها.

لا أحد يستطيع ان يعرف كيف نبتت فكرة شخصية دون كيشوت بالذات في ذهن هذا الشاعر - الموظف، الخائب والسجين، لا أحد يعرف كيف ألّفه وخلقه هو وصاحبه. لكن، وعلى الأرجح، فان الظروف والأحداث التي عرضناها هي المواد والصور والأفكار والأحداث التي شكلت هذه المخيلة العظيمة، والتي خلق بواسطتها سرفانتس شخصية دون كيشوت الغريبة وتابعه الأكثر غرابة سانشو بانسا.

٥
———
٨

قيل الكثير عن هذه الرواية التي تتلخص في خروج رجل يحمل سيفاً ليملأ الأرض عدلاً بعد ان ملئت جوراً، ويتبعه في ذلك رجل يبدو انه نقيضه لكنه مثله أو الوجه الآخر له، وقول الكثير يغري بقول المزيد ويفتح إمكانية التفسير والتأويل، فدون كيشوت ككتاب هو مرآة فيها يرى القارئ نفسه، يرى زمانه وبلاده بل وشخصيته الفردية، انه حلم عدالة لا يتحقق، لكنه يستحق امتشاق السيف في سبيله، قصة مضحكة ومؤسية عن الآمال الضائعة، وعن الزمن الذي مضى دون ان نشعر به، انزال للمقدس والملوك والنبلاء من مستوى التراجيديا الى مستوى الكوميديا، سواء في الحياة أو في الفن، تقديم التراجيديا على شكل كوميديا، انتقال من التأمل وقراءة الكتب، الى العمل وتطبيق العدالة التي هي في الكتب، استغناء عن لغة الشعر السامية، بل وعن اللغة اللاتينية في الأدب الرفيع وتحويل القصة النثرية، قصة الفرسان «الشعبية» الى أدب رفيع. ضحك وبكاء، سمو وانحطاط، رفعة وضعة، آمال عليا لدى دون كيشوت، ومطامع دنيئة لدى سانشو بانسا، لكنهما متحدان ومتشاركان وكل منهما هو الوجه الآخر لصاحبه، عماء في رؤية الأشياء على حقيقتها لدى دون كيشوت، ورؤية للأمور كما هي لدى سانشو بانسا، بصر وبصيرة، صلاة وتجديف، كفران ونعمة، تصوير لاسبانيا وللعالم، تصوير ساخر وحنون لشخصية فيليب الثاني وشخصية سرفانتس الأب والابن معاً، لكن مهلاً من هو المجنون والحالم والطامع، الملك فيليب، أم تابعه أم الشعب الاسباني ؟ وخلال كل ذلك تتبادل الشخصيتان الأدوار، فدون كيشوت يتكلم الحقيقة في جنونه وعمائه، وسانشو بانسا لا يرى الأشياء على حقيقتها بينما هو يصفها وصفاً واقعياً ويراها كما هي أو كما تبدو لعيون الناس، خيال وحلم وحقيقة ووقائع مضحكة مبكية، عدالة وظلم، لكن أين هي الحقيقة، أين هي العدالة ؟

٥

٩

دون كيشوت عاصر هاملت، مثلما عاصر سرفانتس شكسبير، وكلاهما كان يعيش في زمن وعالم انتقالي، عالم تختلط فيه الأشياء والقيم، عالم ذهب قديمه فخلف في النفس حسرة، ولم يأت جديده، فأبقى في النفس أملاً...

أليست هذه مأساة قصة الانسان، وحالته الدائمة ؟ ان يعيش دائماً في زمن انتقالي متغير، أليست هذه قصة الفارس الحزين، ذي القلب الطيب، في هذا العالم، دون كيشوت، مثلما هي قصة الفتى المثالي هاملت، اليست هي اذن قصة الانسان ؟

من دون كيشوت دخلت اليوتوبيا في أساس تكوين الرواية الأوروبية الجديدة والقادمة، وفي كل رواية وروائي عظيم، ثمة شيء من دون كيشوت الرواية، ودون كيشوت الشخصية المتحدة دوماً بسانشو بانسا، دون كيشوت برفضه للواقع، «كما يُرى»، ونشدانه الواقع في «ذاته»، أي في قيمه وقيمته الحقيقية ومغزاه، بل وهدفه، في كل رواية أوروبية عظيمة شيء من الحلم ومن عدم تحققه.

٥

١٠

لكن دون كيشوت وسلالته في الرواية والمجتمع والتاريخ الأوروبي تعرضا لمصير ومسير التاريخ البورجوازي الحديث، فأبناء دون كيشوت في الرواية الأوروبية تحولوا مع تحولات هذه الطبقة الصاعدة في اوروبا

والممتدة الى العالم وعليه، ثم الكاشفة عن حقيقتها وعلى نحومزرٍ، فيما بعد؛ بعضهم قاتل على المتاريس في سبل قيمه مثل «رودين» تورجنيف وبعضهم استخدم ثم لفظ النواة مثل «الكولونيل شابير» لدى بلزاك، وبعضهم أعلن حلمه وبراءته وطهره من كل هذا التلوث وسوءالنية في العالم الواقعي مثل الأمير ميشكين «أبله» دوستوفسكي، الذي كان أو الذي هو في بلاهته وأخلاقه ومثله العليا وطيبة قلبه أنقى من«عقول» ونفوس كل المحيطين به، تماماً مثل دون كيشوت الذي هو في حلمه وعمائه عن رؤية الواقع أكثر نبلاً وأصدق رؤيا من كل رؤيتنا لعالم الأشياء الواقعي. وبعضهم تحطمت حياته وهو يحاول يوتوبياه وحلمه مثل السيدة بوفاري. بعض أبناء دون كيشوت الآخرين غادر حلمه، وأدرك ان كل هذه الحروب التي تشنها الدول والامبراطوريات بعضها على بعض انما هي هراء في هراء، فتقنع بالسخرية واحتمى بها وبحث عن طريقة للهدوء وشرب الجعة في عالم يطالبك بالقتال لأجل أمجاد الامبراطورية كما فعل «الجندي الطيب شفايك» في الحرب العالمية الأولى. فأية بذرة روائية - يوتوبية وحالمة، ألقاها ميجل دي سرفانتس عندما تناول ريشته ودواته ليكتب من خلف قضبان سجنه:

الفصل الأول

« في أحوال وأعمال النبيل الشهير دون كيخوته لامنشا »

في ناحية من اقليم المنشا، لا أريد أن أذكر لها اسماً، ومن زمن غير بعيد كان يعيش نبيل ممن في مسلحتهم رمح، ولهم ترس عتيق وبرذون ضامر وكلب سلوقي. »

وبعد الفصل الأول، تتالى الفصول كما تتالى أيام حياتنا، ويحدث في هذه الفصول مايحدث في حياتنا، هذا اذا أفلحنا في قراءة حياتنا، كما أفلح سرفانتس في كتابه دون كيشوت أو : حياتنا.

٥
___
١١

العدالة غير موجودة في هذا الواقع، أو في هذا العالم، ويبدو ان دون كيشوت بحث عنها قبل ان يخرج خرجاته الموصوفة في الرواية، لكن اذا لم تكن هذه العدالة موجودة في هذا العالم، واذا لم يجدها سرفانتس في واقعه وتجاربه فلماذا لا يبنيها في المخيلة وفي الذهن على شكل رواية ؟.. بل وما المانع من أن تكون هذه العدالة، هذا الحلم السعيد موجود في جزيرة بعيدة ؟

أليست هذه الطريقة في التفكير، أليست هذه الأفكار، هي اليوتوبيا بعينها ؟ لكن كريستوفر كولومبس كان قد وجد في عام /١٤٩٢/ هذه الجزيرة السعيدة الضائعة، هذه اليوتوبيا وربما كانت هي قارة «اطلنتس» التي أضاعها «افلاطون» في جمهوريته.

سميت هذه القارة الضائعة المستعادة فيما بعد امريكا، كما هو معروف، ومن يومها صارت امريكا حلماً ويوتوبيا، حلماً مستعاداً.. وضائعاً فيما بعد، وعلى كل حال، فربما تكون الرواية في تاريخها، ومنذ «دون كيشوت»، الى رواية «المونسنيور كيشوت» لغراهام غرين في ثمانينيات القرن العشرين، بحثاً عن «الحلم الامريكي» أو «اليوتوبي» : كيف راود الانسان، كيف وجده، أو «حققه»، ثم أضاعه، ما البديل ؟ إن كان هناك بديل.

يوتوبيا

الفصل الخامس

يوتوبيا(*)

٦

١

« من كورينليوس جرافي الى القارئ :
أتود أن تعرف عجائب البلاد المكتشفة وغرائبها ؟
أتريد أن تتعلم كيف تعيش حياتك بأساليب صالحة مختلفة ؟
أترغب في فهم أسس الفضيلة والرذيلة ؟
أتريد أن ترى مدى امتلاء هذا العالم بالغرور ؟
اذن فلتقرأ مافي هذا العمل من أمور تناولها
ووضحها للعالم بفطنة إلهية وعلم غزير
ذلك الكاتب القدير سير توماس مور
الذي تفخر به لندن، وبحكمته وعلمه القويم»

* * *

ماتقدم ليس مجرد دعاية اعلانية على الغلاف الأخير لكتاب توماس مور (١٤٧٧ – ١٥٣٥) «يوتوبيا» الصادر عام (١٥١٦)، بل هو تحليل دقيق لماهية اليوتوبيا ؛ فثمة، في هذه اليوتوبيا، والأدب اليوتوبي عموماً، بلاد مكتشفة، وغالباً هي جزيرة في البحر، فبعد اكتشافات كولومبس وامريكو فسبوتشي ودرايك وغيرهم كثرت قصص البحارة وقصص الرحلات الشعبية وصدرت في كتب نافست في شعبيتها كتب الفرسان الجوالين في اسبانيا أيام سرفانتس، لكن لم تكن هذه القصص بلا

---

* نعتمد في هذا البحث ترجمة انجيل بطرس سمعان ليوتوبيا توماس مور ، دار المعارف. مصر – ١٩٧٤.

أساس، وان شابتها المبالغة والتهويل، شأن قصص البحارة وتخيلاتهم، كما نراها في كتب البحر ورحلاته العربية وغيرها، فثمة جزيرة مكتشفة حقيقة هي : امريكا، امريكا التي كانت وعوداً كما يقول الشاعر الامريكي المعاصر ارشيبالد مكليتش في قصيدته : امريكا كانت وعوداً.

٦
―
٢

هذا الوعد «الامريكي» كان حلماً بحياة مختلفة حياة صالحة فيها تنتفي شرور المجتمعات الأوروبية القائمة آنذاك، باقطاعها الآفل، وكنيستها المتسلطة، وبورجوازيتها الصاعدة، وباباواتها وملوكها المتخاصمين، وقد كانت هذه الحياة - الحلم - اليوتوبيا الموعودة مرتجاة على أسس انعدام الرذيلة وسيادة الفضيلة، على أساس احتقار غرور هذا العالم، غرور السلطة وغرور المال، وغرور الفكر الديني الذي يعتقد انه وحده العارف للحقيقة، وان العقل، أو حتى الأديان الأخرى وأتباعهما، لا يستحقون الا النار، وهكذا أتت يوتوبيا «مور» حاوية لكل هذه القيم بل وداعية لها، ونبراسها في ذلك «جمهورية افلاطون» التي يذكرها توماس مور أكثر من مرة في يوتوبيا، فما هي يوتوبيا توماس مور، هذا الكاتب الذي كان أول من نحت كلمة «يوتوبيا»، فقد نحت مور هذه الكلمة من كلمتين يونانيتين ومعناهما الحرفي بعد دمجهما في النطق والكتابة : لامكان. وسرعان ما أدرجت هذه الكلمة - البشرى في الفكر البشري عنواناً للحلم الجميل القادم أو الممكن، وعنواناً للتفكير غير الواقعي عند بعضهم الآخر، وان كنا نميل للاستخدام الأول لهذه الكلمة - المفهوم - الجديدة، فهذا الاستخدام يربط هذه الكلمة - المفهوم بطائفة من أهم الكتب التي كتبتها البشرية، بدءاً من جمهورية افلاطون، وكتاب السياسة لارسطو، ومروراً بآراء أهل المدينة الفاضلة، للفارابي، وحي بن يقظان لابن طفيل ووصولاً الى «اطلنتس» لفرانسيس بيكون،

ومدينة الشمس، لكامبانيلا، هذان الكتابان «الأخيران» – اليوتوبيان اللذان كتبا في مرحلة النهضة وصعود البورجوازية الأوروبية، أي في مرحلة التأسيس الجديد للفن اليوتوبي والفن الروائي، مرحلة انتقال اليوتوبيا من شكل التأليف الفلسفي الى شكل التأليف القصصي – الروائي، فكيف رويت يوتوبيا توماس مور ؟

٦
―
٣

روفائيل عالم برتغالي المولد انساني النزعة مثل «ارازموس» صديق توماس مور، تبحر في اللغات والعلوم القديمة ثم تجول في البحار مثل خالد الذكر وطيبه «يولسيس» وبعدها رافق الرحالة البرتغالي الذي وصل الى حيث وصل كولومبس من قبله، ولكنه امتاز عنه بأنه أدرك انه اكتشف قارة جديدة، هذا البحار الذي سيشتق اسم امريكا من اسمه هو امريكو فسبوتشي، الذي ظل روفائيل معه طوال رحلاته الثلاث الأخيرة، لكنه في الرحلة الأخيرة لم يرجع معه الى وطنه، بل حصل على اذن بالبقاء حيث وصلوا، وهناك تجول كثيراً مع بضعة من رفاقه الأوروبيين في هذه القارة الجديدة امريكا، كما سماها امريكو فسبوتشي أو يوتوبيا كما سماها توماس مور وعلى الأصح الراوي «روفائيل»، الى ان مر في طريق عودته الى الوطن عن طريق سيلان وكلكتا، بميناء هولندي حيث تقابل مع توماس مور الذي كان في مهمة سياسية هناك وروى تفاصيل مشاهداته والعجائب التي رآها لتوماس مور وصديق آخر.

٦
―
٤

يروي روفائيل لمور وللصديق الآخر قصة رحلته، وغرائب ما رأى،

لكن مور لا يهتم بالعجائب والنوادر الطبيعية، كالسلاحف والكائنات الضخمة، وانما يهتم بالنادر الحقيقي أو شبه المفقود في هذا العالم، والموجود بشكل طبيعي في «يوتوبيا» ومجتمعها : حياة متسامحة في الاعتقاد، متساوية في أسلوب العيش وأساسياته، عادلة بالنسبة للجميع، حياة لا وجود فيها للتسلط، حكومياً أم دينياً، وعندما تتحقق هذه القيم، الا نحصل على الحرية والسعادة، هدف كل مجتمع، وكل حياة، الا نحقق الحلم البشري ؟

٦
—
٥

ليست مهمة تفاصيل الحياة المعاشة في يوتوبيا، وكما رواها روفائيل وسجلها توماس مور بدقة شكره عليها الرفيق المستمع الآخر، فهي تفاصيل يمكن تلخيصها بانها السعادة، أو العيش السعيد، ففي يوتوبيا مور الكثير أو قل كل قيم زمانها البريطاني – الاوروبي، المرذول منها، مستبعداً، والجميل منها مرغوباً، فيوتوبيا توماس مور في هذا المعنى هي ابنة زمانها ومجتمعها وكاتبها أو راويتها. لكن المهم في يوتوبيا توماس مور، بل وفي الأدب اليوتوبي عموماً، وفي شقيقه الفن الروائي كذلك، انما هو المنطق الداخلي لهذين الفنين، وقلبهما الدائم، منذ وجدا، لنمط الحياة والقيم البشرية السائدة، أي قفزهما الدائم من منطق «الواقع» الى منطق «الممكن» ومن منطق «الموجود» الى منطق «الحلم»، وبلغة الفلسفة التقليدية: انتقال اليوتوبيا والرواية من «الوجود كما هو» الى «الوجود كما يمكن ان يكون»، هو الأساس، وهو المهم، والمهم أيضاً ان هذين الفنين يقترحان، عبر عرضهما للواقع كما هو في الرواية، وللواقع كما يمكن ان يكون في اليوتوبيا مايلي :

نعم بالإمكان أبدع مما كان، وبالإمكان بناء عالم آخر أكثر سعادة من هذا العالم.

٦
―
٦

عبر هذا الاقتراح تدخل ارادة الانسان في عملية تغيير الواقع، فالمفكر والحالم، وصاحب مشروع بناء عالم جديد ومغاير للعالم كما هو، أو كما هو موجود، هو الانسان بالطبع، وفي هذا استغناء مضمر عن التدخل الخارجي في العالم، لكن عملية تغيير الواقع هي عملية تدخل في التاريخ وتوجيه له، هي صناعة للتاريخ، وبهذا يعود الانسان عبر هذين الفنين، وخاصة الفن اليوتوبي، الى مركز الصدارة بعد ان أقصي عنه على اثر ذلك الاكتشاف الفلكي المذهل في تلك الفترة : الأرض هي مجرد تابع للشمس، وليست مركز الكون، وبالتالي فالانسان على هذه الأرض هو مجرد طفيلي عائش على جسم طفيلي آخر، تابع لجرم مركزي مشع هو الشمس.

٦
―
٧

كان اكتشافاً مخيباً ومؤسياً، لكنه حقيقي، صحيح انه قانون، وانه فضيحة دفعت بقيمة الانسان وأرضه الى المرتبة الثانية، لكن الانسان لا يستسلم فيما يبدو، ومن هذه الحقيقة الفضيحة سينطلق مرة ثانية، وهكذا قرر المنازلة، أملاً بالعودة الى مركز التأثير والقرار، ان لم يكن في الوجود ككل، ففي وجوده الانساني وأثناء حياته على هذه الأرض، وواسطته هذه المرة هي العقلانية الأوروبية، حديثة الولادة آنذاك، ثم المخيلة، نعم المخيلة كوصف للعالم على شكل رواية، والمخيلة لبناء عالم آخر على شكل يوتوبيا. والعقلانية منذ اليوم ستكون الأداة العملية في تحقيق هذه الأحلام، والعلم نتيجة العقلانية وابنها، سيكون الذراع الطويلة، أما القائم بالمشروع، أما المتدخل في صناعة العالم والتاريخ

الجديدة هذه فهو الانسان الذي اكتشف نفسه بعد ان اكتشف مركزه الهامشي في هذا الوجود، وبعدان اكتشف العالم حوله عبر رحلات البحارة : انه الانسان البورجوازي بامتياز، والذي جاب العالم، وأعلن فرديته، وطلق لاتينية الكهان والعلماء والملوك وتوجه الى الشعب ولغته، الانسان الذي أدرك ان عليه أن يتخلص من كل ما يعوق سبيله، وان عليه لكي يسيطر على الطبيعة ان يخضع لقوانينها أولاً، كما عبر فرانسيس بيكون صاحب يوتوبيا اطلنتس الجديدة (١٦٢٠) ؛ واذا كانت قوانين الطبيعة قد قضت للانسان وأرضه بمكان أو مركز هامشي في هذا الكون، فلماذا لا يصنع الانسان مكاناً ومكانة لنفسه تعلو به عن حقيقة وضعه الهامشي هذا، وترفعه الى مكان الصدارة في هذا الوجود، لماذا لايتجاوز قوانين الطبيعة التي تحده بواسطة معرفتها والاحتيال عليها ؟! وتلك كانت مهمة العقل والحلم، لكن في التحقيق التاريخي العياني، تلك كانت قصة صعود الطبقة البورجوازية أيضاً. وتلك كانت بداية تحول المعرفة من سعادة كما نظر اليها القدماء، الى سلطة وقوة، وذلك هو الانتقال من مفاهيم اليونان والعرب الى مفاهيم اوروبا وبورجوازيتها الصاعدة والسائدة فيما بعد في أوروبا والعالم.

٦
―
٨

اذن تدخل الانسان في الواقع عبر الحلم، روائياً كان أم يوتوبياً أم فلسفة عقلانية، وهذا التدخل في الواقع هو في حد ذاته فعل تمردي وثوري، وكون الحلم والمخيلة والرواية والفلسفة العقلية، بل والعلم، تأسست على شكل تدخل في الواقع، محاولة لاعادة الاعتبار لانسان وأرض فقدا مكانتهما في عالم أصبحا فيه هامشيين وتابعين، هو مايعطي الحلم والعقل بعدهما الثوري، وربما لهذا ينظر التقليديون دوماً بحذر وريبة نحو العقل ونحو الحلم، في حين يمجدهما الثوريون

والمتمردون، وكل من ليس لهم مصلحة في قبول الوضع القائم أو الواقع كما هو، بالطبع نحن نختلف في هذه الرؤية للعقل والحلم مع الصوفيين والسرياليين، الذين يخلقون تضاداً بينهما، فالعقل، كما الحلم، في رأينا، هو قوة سلب ونفي، وليس قوةاستقرار وجمود أوتجميد.

٦
―――
٩

يبدو أننا ابتعدنا عن «يوتوبيا» توماس مور نحو اليوتوبيا ككل، لكن عذرنا في ذلك ان يوتوبيا توماس مور كانت الكتاب المؤسس الأول لهذا الفن التخييلي الروائي الحديث، بل هي التي أعطت المصطلح اسمه ومنحته مفهومه ومنطقه الداخلي. فيوتوبيا توماس مور، مثل أي يوتوبيا، أو رواية، لها مستويان :

مستوى أول هو عرض ونقد الحياة المعاصرة لزمن كتابتها، وفي حالتنا هي بريطانيا أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر، حيث كانت بريطانيا تتهيأ لتخرج مع اوروبا من ظلام القرون الوسطى وجمودها الى رحاب العصر الحديث.

أما المستوى الثاني فهو المستوى الحالم، أو مستوى عرض بديل لهذا العالم الموجود، انه مستوى المخيلة التي تنطلق من هذا الواقع باتجاه قلبه وعكسه. وكما هو واضح فهذان المستويان المتداخلان موجودان في الرواية، وبالآلية، واللغة النثرية ذاتهما أيضاً.

٦
―――
١٠

في المستوى الأول نعرض قصة حياة توماس مور، وعصره، فقد كان صاحب اليوتوبيا ابن قاض، وكان ذكياً مستقيماً حتى أن أحد مدرسيه تنبأ له بمستقبل باهر، ثم درس في جامعة اكسفورد، وبعدها

اشتغل محامياً، ثم تصادق مع بعض كبار دعاة المذهب الانساني من عصر النهضة مثل «ارازموس»، الهولندي الشهير صاحب «مديح الحماقة» ثم صار عضواً في البرلمان، فعارض الملك القوي، هنري السابع، عندما طلب زيادة الضرائب، مما اضطره للهرب الى ان توفي هنري السابع وارتقى العرش هنري الثامن، فعاد مور الى السير في طريق الترقي الحكومي، وصار نائباً لعمدة لندن، مع اشتغاله في المحاماة، الى ان عيّنه هنري الثامن في البلاط، وكان هناك مشكلة بين هنري الثامن والبابا فالملك يريد طلاق الكاثوليكية كاترين، والزواج من «آن بولين» مما اضطر هنري الثامن، وكرد على رفض البابا لهذا الزواج المخالف للأعراف الكاثوليكية، ان يعلن نفسه حامي الكنيسة الانكليزية ورجالها، بل ورئيسها الأعلى. انه التمرد على سلطة البابا وكنيسته.

وهكذا بدأت بريطانيا تنفصل عن الكاثوليكية، وهذا ما لايمكن لرجل مؤمن وأخلاقي مثل توماس مور أن يوافق عليه، وكانت النتيجة ان الملك، وكما استهان بتشريع البابا ممثل الله على الأرض، استهان كذلك بحياة صديقه ومستشاره الكاثوليكي. لكن معارضة توماس مور استمرت بعد ان رفض حلف يمين اصدره الملك هنري الثامن والزم الحاشية بأدائه، ويقضي بحصر وراثة العرش في أبنائه من «آن بولين» عوضاً عن ان يكون العرش في أبناء كاترين الكاثوليكية، وقد كان القسم الجديد يتضمن انكار كل يمين سابقة أديت لجهة أجنبية أخرى، وقد كان نص القسم الجديد يلمح بذلك الى التنصل من الايمان السابق تجاه الكنيسة الكاثوليكية والبابا. ولان مور تقي مؤمن مستقيم، لا يرغب في الحنث بيمينه واعتقاده، فقد حاكمه هنري الثامن وأعدمه، وكان مور قد أشار قبل ذلك في يوتوبياه الى خطر وعبثية مصاحبة الملوك والنصيحة لهم، أو التعاون معهم.

٦

١١

هذه هي حياة توماس مور، في بريطانيا والتي يبدو أنها تشكل المستوى الأول أو الكتاب الأول من يوتوبيا التي تتألف من كتابين. في هذا الكتاب الأول، يقدم «مور» صورة كالحة لبريطانيا وحكامها، من اقتصادها الى قوانينها الى أخلاقها الى حكامها، الى جشع طبقتها البورجوازية الصاعدة آنذاك، وان كان ذلك مروياً على لسان البحار «روفائيل» وكأن مور يقول لنا، تلك نظرة محايدة، ولا دخل لي في روايتها.

أما الكتاب الثاني، فهو المستوى الثاني للسرد الروائي - اليوتوبي، وهو بيت القصيد كما يقال، وفيه يروي روفائيل مشاهداته وملاحظاته في جمهورية يوتوبيا العجيبة، جمهورية الحلم، جمهورية العقل، جمهورية المخيلة، هذه الجمهورية التي تمثل على صورة أمل يوتوبي كل عناصر ومساوئ وآثام الحياة البريطانية - الأوربية آنذاك، والتي هي بشكل ما صورة لمساوئ وآثام الانسان في كل عصر على مايبدو، وتحولها الى نقيضها، الى حلم السعادة البشرية الأبدية لكل البشر، (وان كان مور يتابع جمهورية افلاطون في وجود العبيد داخل يوتوبياه، فالعبيد كانوا «تكنولوجيا» العمل وأدواته للسادة) وإلا فلماذا مانزال نجد في جوهر يوتوبيا مور وحلمها - حلم عصرنا ويوتوبياه، قصيدة مناجاته ورواية أمله، حلم يقظته، لماذا مازلنا نقرأ، بالشغف نفسه، ومنذ عام ١٥١٦ كتاب :

السياسة المثلى
ووصف يوتوبيا
حديث
روفائيل هيثلوداي

كما يرويه :

توماس مور
مواطن ورئيس أمن
«المدينة الشهيرة لندن»

٦
―
١٢

لكن ماذا بقي وماذا تحقق من يوتوبيا توماس منذ ذاك الوقت وحتى الآن وكيف تحقق ماتحقق، وفي أي الطرق سارالانسان الاوروبي، العالمي، البورجوازي، الانسان العادي، وهو يبني عالمه الجديد، ويحاول تحقيق حلمه، واستعادة مكانة نفسه وأرضه المفقودتين منذ أعلن كوبرنيكوس ان هذه الأرض مجرد تابع للشمس،وربما هي ذرة تائهة في فضاء لانهائي، وان كلام لايبنتز عن أن هذا العالم هو خير العوالم الممكنة هوهراء في هراء، وربما لهذا كان بإمكان فولتير أن يسير مع «كانديد» في رحلة الحياة وروايتها، ليبرهن لنفسه، وللايبنتز، ان هذا العالم ليس هو خير العوالم الممكنة. وأن هناك عوالم ممكنة هي خير من هذا العالم، وقد تولى العقل والحلم رسم أشكال ونماذج هذه العوالم الممكنة في المخيلة، وما على الانسان الأوروبي الصاعد بقوة المعرفة وسلطتها، مثلما بقوة المخيلة وأحلامها، الا سرد رواية هذه العوالم وبناءيوتوبياها. فلنتابع هذه المحاولة، محاولة رد الاعتبار لأرض وانسان فقد مركزه وأهميته، وتخلى الله عنه ملقياً إياه ذرة تائهة، بلا معنى في هذا الكون، فتخلى هو عن الله، وقرر أن يبني عالمه بعقله ومخيلته، قرر ان يأخذ أمره بيده، وأن يكون هو المحرك الأول والأخير، وليكن مايكون. فماذا كان ؟ !

مدينة الشمس

الفصل السادس

مدينة الشمس*

٧
―
١

منذ سقوط آدم من الجنة، تلك اليوتوبيا أو الفردوس المفقود، وهناك مدينتان في هذا العالم، المدينة الأرضية، وهي شيطانية، والعيش فيها شكل من أشكال العقوبة والامتحان،والمدينة السماوية، أو «مدينة الله»، ويمثلها الدين الالهي، دين موسى مابقي أتباعه مخلصين للوحي وجوهر الدين، بينما باقي البشر هم من أتباع المدينة الأرضية، ولاسيما الامبراطورية الرومانية الوثنية.

لكن هاتين المدينتين لم تكونا منفصلتين تماماً، فالله يتدخل بين وقت وآخر في هذا العالم الأرضي ؛ وتدخله اتخذ شكل ارسال السيد المسيح في سبيل اعلان الوحدة النهائية لهاتين المدينتين، فالمسيح أتى ليخلصنا من الخطيئة التي جعلتنا نستحق هذه العقوبة القاسية والأليمة : العيش في المدينة الأرضية ومن ثم ننتقل مع المسيح الى المدينة السماوية، مدينة الله.

هكذا تصبح «مدينة الله» هي مدينة المؤمنين في نطاق الكنيسة، وربما كان هناك مكان في هذه المدينة لبعض «الأخيار» الآخرين، لكن مدينة الله السماوية والمقدسة لن تكون بعد اليوم خارج كنيسته، ويبدو ان هذه الكنيسة كانت تطمح لوراثة الامبراطورية الرومانية المنهارة، أو هكذا سارت الأمور على الأقل.

لكن «مدينة الله» أي كنيسته، أصبحت أرضية، وان كانت محطة

* نعتمد ترجمة حسن حسين شكري. مدينة الشمس تومازو كامبانيلا. الهيئة العامة للكتاب. مصر ١٩٩٠

انتظار واختبار، قبل الانتقال الى مدينة الله، في السماء، ولهذا كان من الطبيعي ان تخضع السلطات الزمنية - الملوك - على هذه الأرض، الى السلطة الروحية، ممثلة الله والمفوضة بحماية ورعاية مدينته، وسواء أكان الحاكم صالحاً أم سيئاً فهذا لا يغير شيئاً، فالله هو مصدر السلطة، والله حاضر على هذه الأرض، بيننا، عبر كنيسته، وكنيسته حاضرة عبر كهنتها، والكهنة متواجدون في السلطة والقوة عبر الكاهن الأكبر، والكاهن الأكبرهو البابا، كما هو معروف، البابا هو رأس هذه المدينة السماوية على الأرض، ولهذا فمن الطبيعي ان تخضع السياسة للدين والملك للبابا، والعقل للدين.

$\frac{٧}{٢}$

هكذا رسم القديس اوغسطين العالم منذ أوائل القرن الخامس الميلادي، أو هكذا تخيله على الأصح في كتابه : مدينة الله. كان القديس اوغسطين، فتى جزائرياً عبٌ من الحياة ما استطاع في شبابه، لكن الله قذف نوره الالهي في صدر الشاب اللاهي، فتحول الى القديس اوغسطين، ملك الفكر المسيحي المتوج طوال العصور الوسطى والمشرع الأول لسيطرة الكنيسة على شؤون هذه الدنيا بكبيرها وصغيرها، وقد استمر هذا التفكير - التخييل الاوغسطيني للعالم منذ القرن الخامس، وحتى مطلع عصر النهضة، حيث بدأت أفكار وتخييلات وأحداث وعلوم وقوى ومدن جديدة، ليست إلهية كلها، بالطبع، في الظهور وفي الصعود والتقدم على مسرح التاريخ والحدث والفكر الانساني، وما حادثة طلاق هنري الثامن ملك انكلترا وزواجه الثاني وانفصال الكنيسة الانكليزية عن الكنيسة البابوية، أو تمرد مارتن لوثر في المانيا، الا مظاهر لهذا الجديد الذي بدأ يمزق مدينة ومخيلة ورؤية القديس اوغسطين، أو رسمه البسيط والجميل بالأبيض والأسود لهذا العالم.

٧

٣

يبدو أن الانسان الأوروبي، منذ بداية عصر النهضة، وعقب انتشار الحركة الانسانية بأفكارها المعروفة، بدأ يفضل المدينة الأرضية على المدينة السماوية، ومدينة الانسان على مدينة الله، بل ويطمح الى بناء مدينته على هواه، مبعداً الله خارج هذا العالم ومستغنياً عن هذا «المحرك الأول» لهذا الوجود، لقد وجد الانسان هذا المحرك الأول في نفسه، اليس هذا هو مؤدى فلسفتي بيكون وديكارت ؟، أو كل من العقلانية الفرنسية والتجريبية الانكليزية، اللتين تؤسسان الوجود على الذاتية، ذهنية لدى الفرنسيين، وحسِّية لدى الانكليز ؟.

اذن لم يعد المحرك الأول لهذا الوجود من خارجه، بل ولم تعد الأرض هي المركز، فالمركز هو الشمس على مايقول كوبرنيكوس وجاليله، واذا كانت الشمس هي المركز فلماذا لا تكون هي المحرك ؟ لكن ماهي الشمس ؟ اليست طاقة هائلة، طاقة حرارة وسطوع وكشف ونور ووضوح؟ وعلى كل حال فالشمس من داخل هذا العالم وهي مرئية وظاهرة بل وواضحة السطوع والفاعلية، فلم لا يكون هذا العالم هو عالم الشمس، ولم لا تكون المدينة هي مدينة الشمس أيضاً؟

وداعاً أيها القديس اوغسطين، ووداعاً يا مدينة الله، فها هي مدينة الشمس تتقدم، وهاهي الشمس بكل ماترمز اليه من دلالات رمزية عقائدية وعلمية تسطع فوق المدينة، بل وهاهي طاقتها تحرك المدينة والعالم، تحرك الوجود.

٧

٤

كان توماس كامبانيلا (١٥٦٨ - ١٦٣٩)،المتزامن مع ديكارت وبيكون وجاليلو، أول من أعلن هذا الخيار الجديد : مدينة الشمس بدل

مدينة الله. كان كامبانيلا راهباً «أرضياً» وشمسياً على مايبدو، مشغولاً بالسياسة وبالعمل ضد السيطرة الاسبانية على ايطاليا، على الرغم من كاثوليكية اسبانيا وايطاليا معاً، فقضى في السجن سبعة وعشرين عاماً، وهي مدة ليست بالقصيرة كما هو واضح، تعرض خلالها للتعذيب الشديد سبع مرات. وسنصف لاحقاً احدى هذه الحفلات.

اتهم كامبانيلا في بداية حياته، بمعارضة ومهاجمة السلطات، وهل من سلطة عليا في القرون الوسطى أكبر من ارسطو ؟ ولذلك تلقى انذاراً من الدير الذي يعيش فيه، مما اضطره لترك هذا الدير دون موافقة رؤسائه، فقد كان كامبانيلا، على ايمانه بالمسيح المخلص وكنيسته، يفصل بين العلم والدين، ويرى ان مجال العلوم هو غير مجال العقيدة الدينية ؛فعماد العلم هو المعرفة الحسية بما تحتويه من ملاحظة وتفكير وتجريب، اضف الى ذلك أن قراءة«كتاب الطبيعة» تعادل في رأي كامبانيلا قراءة الكتاب المقدس. فلم لا نقرأ كتاب الطبيعة أيضاً ؟

في الرابعة والعشرين من عمره ذاق كامبانيلا مرارة وقساوة سجن البابا، والتهمة كانت انه آخى جنياً، والا فمن أين له هذا العلم الغزير، وهو الفتى الغرير؟

قد تكون تهمة مؤاخاة الجن تهمة «شاعرية» وتخييلية اليوم، وربما عند بعض الناس، وخاصة نقاد الشعر العرب القدماء، لكنها كانت عند البابا جريمة. صحيح ان كامبانيلا، بحذقه وايمانه، دفع الاتهامات الموجهة اليه، لكن الشكوك بقيت تراود البابا ورجاله عن «مصدر» علم هذا الراهب الشاب، فكان الحكم هو العودة الى الدير حيث عليه أن يتلو، وكعقوبة، يوم السبت تحديداً، صلاة التوبة، وصلاة الموتى ثلاث مرات. الا ترون ان الأمر أشبه بالإقامة الجبرية، وتأكيد الوجود لدى المخفر الأمني كل أسبوع ؟.

لكن كامبانيلا كتب في هذه الاقامة الجبرية كتاباً ذا عنوان دال وموحٍ هو «في الأحلام»، وبدلاًمن الاستمرار في هذه الاقامة الجبرية،

هرب وقابل صديقه جاليلو وأنتم تعرفون أفكار جاليلو وفعلته، بل ومحاكمته فيما بعد. فالرجلان، جاليلو وكامبانيلا، سيتكلمان لاحقاً عن موضوع واحد هو : الشمس.

قبض على كامبانيلا مرة أخرى، وحوكم بتهمة «الفسق» هذه المرة. وبعد حوالي عام استولت الكنيسة على مخطوطاته وكتاباته، ثم حوكم مرة أخرى أمام محكمة التفتيش، وكانت التهمة الجديدة- القديمة انه حاد عن تعليمات «ارسطو» وتبع الفيلسوف اليوناني الآخر «ديمقريطس». وكما هو معروف لدارسي فلسفة القرون المسيحية- الأوروبية الوسطى، فان مخالفة ارسطو كانت تعني ضمناً مخالفة القديس توما الاكويني، ومخالفة توما الاكويني تعني مخالفة اوغسطين والكنيسة، ومخالفة الكنيسة تعني مخالفة البابا، وليس كل الناس ملوكاً كهنري الثامن، أو متمردين مثل لوثر، ولكن نظراً لضخامة هذه التهمة فقد حُولت محاكمته هذه المرة الى العاصمة «روما» حيث سجن وحوكم وحكم عليه ان يستنكر الآراء المنسوبة اليه، وهذا ماحصل لصديقه «الشمسي» جاليلو، كما تعرفون.

٧
—
٥

لم يكن غريباً من راهب شاب رأى كل هذا الفساد، وعاش كل هذا الظلم والظلامية من الكنيسة في «مدينة الله» هذه أو سجنه، ان يدعو الى تجديد الكنيسة والبابوية، أي ان يدعو الى تجديد «مدينة الله» اياها ؛ وبما انه كان رجلاً مهتماً بموضوع الأحلام والخيالات، وسبق ان كتب في الموضوع كتاباً، فقد كانت تلك بداية طيبة للموضوع ومدخلاً ممتازاً، بل وممراً من حلم المنام، الى حلم اليقظة، واذا كان لم يستطع ان يرى كنيسته أومدينته المنشودة قائمة في الواقع، وعلى الأرض، مكان الكنيسة أو البابوية التي عذبته، فلم لا يراها ويرسمها في المخيلة، في أحلام

اليقظة الكتابية ؟ لم لا يبني كنيسة مسكونية على شكل مدينة مغايرة لهذه المدينة التي عانى منها ماعانى هو وشعبه الايطالي الذي تتواطأ الكنيسة عليه مع المحتل الاسباني - الكاثوليكي؟

٧

٦

لكن الحلم يحتاج الى عمل لتحقيقه، المدينة الجديدة بحاجة لبناء وتشييد، فثمة خيط دقيق كما تعرفون بين الفكر والعمل، بين الحلم والشروع في تحقيقه، وهكذا اشترك كامبانيلا في تخطيط تمرد شعبي ضد الكنيسة، وضد التاج الاسباني المحتل، وقد وصف شركاؤه في هذا التمرد بعد ان افتضح امرهم بانهم جماعة من : «الوطنيين والرهبان والاباحيين وأنصار الحرية والنبلاء المفلسين». لابأس... فهكذا وصف الثوار على مر التاريخ.

كشفت خطة هذا التمرد عام ١٥٩٩ . وكان كامبانيلا قد تنبأ بأن العالم سينقلب عام / ١٦٠٠/، أي في موعد قيام الثورة فيما يبدو، وسيشهد تغييرات كبيرة طبيعية «فيضانات.. زلازل»، وبشرية، فثمة عصر جديد قادم ينعم فيه البشر بحريتهم الطبيعية، وهكذا عوض كامبانيلا بالخيال عن رغباته وأمانيه المخفقة والسجينة، واستخدم السحر والتنجيم في رسم تخييله، بل وللمساعدة عليه، فالسحر والتنجيم هي علوم العصر وتقنياته آنذاك، والانسان حتى ولو كان في مثل شخصية كامبانيلا لا يستطيع أن يطير خارج نطاق جاذبية أفكار زمنه نهائياً.

كانت نتيجة هذا السحر وهذا التنجيم، وهذا التبشير بالحرية الطبيعية القادمة ان محكمة التفتيش حكمت على كامبانيلا عام ١٦٠٢ بالسجن، مدى الحياة هذه المرة. فليتفضل الى السجن نهائياً، وليتنبأ ولينجم، وليحلم، وليتخيل على هواه : هذا الراهب الشاب، والحالم الذي لا يمكن شفاؤه.

٧

٧

لا فائدة، وربما لا جديد في متابعة سرد قصة كامبانيلا، فهي تسير على هذه الشاكلة، ويتخللها ادعاؤه الجنون، واجباره على ان يبقى مستيقظاً، رهن التحقيق، ستاً وثلاثين ساعة متواصلة ويداه مقيدتان خلف ظهره، مربوطتان عند المعصم وحين يعجز عن تحمل الألم، كان يجبر على تدلية نفسه فوق مسامير تمزق لحمه. لكن كل ذلك لم يجعله يذهل عن نفسه وينسى انه «مجنون» بل وكتب ربما ساخراً أن من شروط «الشمسي» ان يستطيع البقاء مستيقظاً أربعين ساعة، فهل كان يسخر من محكمة التفتيش، أم يزهو بنفسه وقوة صبره وتحمله ؟

أفلح ادعاؤه «الجنون» فأفلت من حكم الاعدام، ذلك ان حكم الاعدام لا ينفذ في المجانين، كما في عرف العصور الوسطى، لكنه بقي في السجن. وبين حين وآخر، كان ينعم بشيء من الحرية والسجن المخفف، بانتظار العودة الى السجن، أو الى التشدد في تنفيذ الحكم، ولذلك لم يكن يستطيع ان يفعل شيئاً الا ان يتأمل ويكتب، فهل من عجب لرجل عرضنا «عينات» مما عاني، وعلى يد حكام وموظفي «مدينة الله» ان يحلم بمدينة لا يسيطر فيها الكهنة ورجال الدين والتاج الاسباني، مدينة لا يعيش فيها أمثال كامبانيلا في زنزانات لا تدخلها الشمس أبداً ؟

٧

٨

مثل سلفه العظيم سرفانتس،الذي أتته فكرة رواية دون كيشوت وبدأ كتابتها في السجن، فقد كتب كامبانيلا «مدينة الشمس» في السجن أيضاً عام ١٦٠٢ بعد انفضاح سر محاولته التمرد، أي في العام

الذي حكم عليه فيه بالسجن مدى الحياة، ومما له دلالته ان كامبانيلا كتب «مدينة الشمس باللغة الشعبية الايطالية» وليس باللغة الكهنوتية المثقفة، أي «اللاتينية»*، وكأنه بذلك يهيؤها لأوسع انتشار، ويذهب بعض الدراسين الى ان مدينة الشمس هي تعويض ذهني وتخييلي عن المدينة - المجتمع الذي كان كامبانيلا يريد تشييده فيما لو نجحت ثورته وتحققت نبوءته وأفلح سحره وتنجيمه، لكن لماذا مازلنا نقرأ مدينة الشمس حتى الآن، لو كانت هكذا : مجرد تعويض نفسي فردي ؟ فماذا عن هذا الكتاب وماذا يوجد داخل «مدينة الشمس» ؟

٧
―
٩

مثل «يوتوبيا» توماس مور، ثمة في مدينة الشمس لكامبانيلا بحار «جنوي» من مرافقي الجنوي الآخر كولومبس في رحلته المعروفة الى امريكا، يروي على استعجال لفارس اسبتاري، أي من فرسان القديس حنا، قصة مشاهداته في احدى رحلاته، انه يروي مشاهداته أو تخيلاته وتخييلاته عن جزيرة اسمها «تايروبانا» أرست فيها سفن كولومبس مرة.

بالطبع كانت قصة رحلة كولومبس الشهيرة (١٤٩٢) ماتزال ماثلة في الأذهان، وقد مضى الزمن الذي كان فيه الانسان يستكشف العالم مشياً على الأقدام، أو على ظهور الدواب كما في رحلات ابن بطوطة وماركوبولو، مضى الزمن الذي كانت فيه الرحلات تروى كمغامرات في الصحارى والغابات وفي بلاطات الخانات والأباطرة والملوك، وأتى زمن

* مما له دلالة أن محكمة التفتيش أصدرت حكماً بحق الفرنسي ليفيفر دي تابل في عام (١٥٢٩) لأنه تجرأ وترجم الكتاب المقدس الى اللغة الفرنسية، أي الى لغة الشعب اليومية

الرحـلات البـحرية ورحـلات المخيلـة، أتت أزمنة الاكتـشـافـات والأحـلام، وأتى زمن اطلاق المخـيلة والعـقل الى أقـصـى حـدود قـوتهـمـا، أتى زمن اكتشاف البحر، ومابعده، والبحرميدان متسع للمخيلة، مثلما هو مجرى لسفن وفضاءللاحتمـالات والتـخـييـلات، ويمكن أن يكون مليئـاً بالجـزر السعيدة أو على الأقل الجزر التي تعيش حياة مخالفة لحياة هذه القارة الأوروبيـة التي تحكمـهـا الكنيـسـة والاقطاع والباباوات والملوك وارسطو وتوما الاكويني، عدم المساواة والتعصب الأعمى، القساوة والظلم، وخلف البحر أيضاً أراض لا مالك لها، فمن يملكها ؟

هكذا رأت اوروبا الأرض الجديدة امريكا، ففي حين رأتهـا مـخـيلة المفكرين والفلاسفة والثوار أرضـاً للحلم، ومكاناً بديلاً، رأى فيهـا الملوك والكنيسـة أرضـاً لا مالك لها، ولا عقيـدة «مسيحية» فيهـا، لذلك يجب «امتلاكها» و «تنصيرها»، أليس ذلك أحد أبعاد أو مظاهر مايسميه «بول هازار» : أزمة الضمير الأوروبي ؟

هل تضاربت الرؤيتان وتضارب المشروعان ؟

هذا التضـارب هو مضـمـر الموضـوع واستراتيجيته التي نناقشـهـا خلال الدراسة من أولها الى آخرها.

٧

١٠

مـا الجـديد في «مـدينة الشـمس» لدى كـامـبـانيـلا، وخـاصـة بعـد جمهورية افلاطون فكرياً، ويوتوبيا «مور» أدبياً ؟

مـرة أخرى ليست مـهـمـة التفـاصـيل في اليـوتوبيـا، ومنهـا مـدينة الشمس، فكلهـا متشـابهـة تقـريباً من حيث المتوخى، أي من حيث طلب العدالة والحرية والمساواة، وبكلمة جـامعة : السعـادة. لكن الجديد في يوتوبيا كامبانيلا هو شيئان : الشمس أولاً، والعلم ثانياً، فعوضاً عن

مـدينة الله تأتي مـدينة الشـمس، وبكل المحـمـولات الدلاليـة والـرمـزية والمضـمـونيـة لهـذا الجـرم - الرمـز الذي بات مـركـزياً منذ البـولوني كـوبرنيكوس، الذي ربمـا كـان يسـتـعيـد عن طريقـه رأي ذلك الفـيلسـوف اليـوناني الذي قـال ان النار هي مـصـدر الوجـود، اليسـت الشـمس كـرة نارية، أو طاقـة كالنار ؟ لكن الشـمس اضـافة الى طاقـتهـا ونارهـا، هـي، بالنسـبة لعالمنا الأرضي، نور وضـوء وهواء طلق وحـرية. ترى هـل قـصـد كوبرنيكوس وغاليلو هذه المعانـي عندمـا قـالا بمركـزية الشـمس في وجـه تعـاليم الفلك القديم، فلك الكنيسـة، أم انهمـا كـانا يقـرران حـقيقـة علميـة فقط؟.

بالطبع يمكن الانسـياق وراء هذه الطريقـة في التـحليل، وهـي طريقـة شـاعـرية في تفـسـيـر العلـم، لكننا نـتـرك ذلك لذهن القـارئ وشـاعـريتـه ومـخـيلتـه، ونركـز هنا على دلالة واحـدة للشـمس وهـي الطاقـة، والطاقـة المحـركـة تحـديداً، فـالشـمس هي مـصـدر الطاقـة الأول ورمـزهـا، وعلى الطاقـة، مـفـهومـاً وقـدرة، مـادة ورمـزاً، قـوة وتحـقـقـاً، تقـوم الحـضـارة البرجوازية الصناعية الأوروبية - العالمية المعاصرة، فالطاقة هـي المحرك الأول، هـي القـوة، وبـواسطة العلم - العـقـل - المعرفة، تخـرج هـذه الطاقـة وتظهرأعـاجيبها، أمـا الانسان وارادته، وعلى الأصـح علمه، فتوجه حـركـة هذه الطاقة و«تستغلها».

هكذا تتكامل ثلاثيـة كـامبـانيـلا، ويتكامل تثليثـه، كـمـا عـرض ذلك الفيلسوف الألماني المعاصر ارنست بلوخ في كتابه عن «فلسـفة العصـور الوسطى». فثلاثية كامبانيلا الجديدة : هي القوة، العلم، الارادة. فـأين هو اذن التثليث المسيحي : الأب - الابن «الروح القدس» ؟

لنقرأ عرض كامبانيلا لتثليثه، كما عـرضـه في مدينة الشمس، ونحن هنا ننقل عن الترجمة العربية لمدينة الشمس :

٧
―
١١

روى البحار الجنوي، قال :

«لهم – في مدينة الشمس – اسقف يسمونه الشمس، لكنه قد يسمى في لغتنا «الماورائي» أي الضليع في علوم ماوراء الطبيعة. وهو رئيسهم الروحي والدنيوي على السواء وتنتهي عنده كل القرارات..

وثمة أيضاً ثلاثة أمراء ملازمين له هم : أمير القوة، وأمير الحكمة، وأمير الحب.»

هذا هو مثلث كامبانيلا إذن : قوة، معرفة، ارادة. ولنتابع رواية البحار :

«وأمير القوة مسؤول عن الحرب والسلام والشؤون العسكرية. وهو صاحب السلطة الأعلى وقت الحرب، لكنه لا يعلو الاسقف المسمى «الشمس» وهو المسؤول أيضاً عن الضباط، والمحاربين، والجنود والذخائر، واقامة التحصينات وضرب الحصارات.

وأمير الحكمة مسؤول عن كل العلوم، وعن جميع حكماء وأساتذة الفنون العقلية والميكانيكية. ويخضع له عدد هائل من المشتغلين بالعلوم، منهم المنجم والكوزموجرافي والمهندسون، والمناطقة، وعلماء البيان والنحو، والأطباء والفيزيائيون والساسة، وعلماء الأخلاق. وليس للحكمة سوى كتاب واحد تعالج فيه جميع العلوم، وتدرس للشعب كله على الطريقة الفيثاغورثية. وجميع العلوم مصورة عنده فوق جميع الجدران، وفوق التحصينات الخارجية والداخلية.

....

«وأمير الحب مسؤول عن التربية، ورأيه هو العمدة في تزويج الذكور والاناث الذين ينجبون ذرية سليمة معافاة. انهم يضحكون منا لاننا نعنى بتربية الكلاب والجياد، ولا نعير ذريتنا اهتماماً كبيراً. وأمير

الحب مسؤول أيضاً عن التعليم، وعلوم الطب والعقاقير، وعن بذر المحاصيل وحصادها، وعن مخازن المؤن ؛ وباختصار، عن كل مايتعلق بالطعام والملبس والعلاقات الجنسية ويعمل تحت أمرته كثير من الرجال والنساء ذوي البراعة في هذه الوظائف.

أما «الماوراني» فيحكم كل هذه الأمور بوساطة هؤلاء الأمراء الثلاثة، ولا يُعمل شيء بدونه، ومن ثم، يناقش هم الأربعة كل شيء معه ويوافق الجميع على مايقرره الماورائي» !

لكن بقي ان نعرف ان أهل مدينة الشمس :

«هم يكنون العداء لارسطو، ويسمونه «مدعي العلم»، غير انهم يبجلون الشمس على انها كائنات حية، وصور الله بل معابد سماوية، لكنهم لا يعبدونها وان كانوا يبجلون الشمس تبجيلاً يفوق تبجيلهم لأي كائن آخر. لكن ليس ثمة من جدير بالعبادة غير الله. وهم يوقرونه في ظل علامة الشمس التي هي رمز وصورة للذي يبعث الضوء والدفء وكل شيء».

هذه هي الشمس تبعث الضوء والدفء و «كل شيء»، وهذه هي مدينتها وسكانها الذين :«يؤكدون ان الفقر المدقع يجعل البشر كذابين وشهود زور، لصوصاً وخارجين على القانون، أعني انه يجعلهم خبثاء، جبناء، غشاشين، بينما يجعلهم الثراء متغطرسين متعالين، جهلاء، ساخطين، خونة، وقحين، بينما شيوع ملكية السلع يجعلهم أغنياء وفقراء في الوقت نفسه على السواء، أغنياء في انهم يملكون كل شيء، وفقراء في انهم ليس لديهم ممتلكات يخدمونها، بينما تخدمهم جميع الممتلكات، وفي هذه النقطة فانهم يكنون الثناء الجميل للمسيحية، ولحياة الرسل».

في «مدينة الشمس» يكنون الثناء الجميل للمسيحية ولحياة الرسل، لكن أين أصبحت «مدينة الله» أيها القديس أوغسطين، وأين أصبح البابا

وكنيسته ؟ بل والى أين وصل التثليث المسيحي كله ؟ فكمبانيلا كما هو واضح لا يريد أن يفرق تفريقاً قاطعاً بين تثليثه وبين التثليث المسيحي، ان لم نقل انه لا يريد ان يستبدل ثلاثيته بالتثليث المسيحي، فهو يريد ان «يهضم» التثليث المسيحي ومدينته، في تثليثه الجديد ومدينته الشمسية، كما ابتلع القديس اوغسطين المدينة الأرضية لصالح المدينة السماوية، وتلك حركة الفكر التاريخية دائماً فيما يبدو – تبادل أدوار – ولكمات.

٧

١٢

على الأسوار المتداخلة لمدينة الشمس كتبت مبادئ الرياضيات، وكل الأرقام والمعادلات الرياضية، وتفسيراتها وحلولها، مصوغة شعراً جميلاً، كذلك رسمت الأرض كلها بجميع بلادها ؛ فجميع الخليقة مهيأة للعيش في هذه المدينة الشمسية، حيث لا أرقاء ولا عبيد، كذلك زينت الجدران بصور عجائب الطبيعة وخيراتها ونوابغها على مر العصور ومن جملتهم النبي العربي المسلم، وهذا أمر غير مبهج للكهنة المتعصبين، كذلك، ثمة صور للحشرات والزواحف والفنون الميكانيكية، ولكل المعارف والعلوم والخيرات. وباختصار فجدران المدينة وأسوارها هي متحف للعلوم الانسانية والطبيعية، وهذا المتحف مشاع للشمسيين، فأي حلم نبيل لرجل كان ديكارت نفسه، وآخرون من فلاسفة ومفكري فرنسا، آنذاك، يعتبرونه «مجرد رجل مثالي وحالم وشبه مجنون» ومن بقايا عصر مضى وانقضى» ؟ وببساطة لقد نظروا اليه كما نظر سكان اقليم «المنشا» لسلفه العظيم دون كيشوت من قبله، لكن المفارقة ان كامبانيلا انما كان يزامن ويوازي، يشابه ويكمل، ديكارت العاقل العظيم، في عقله وفيزيائه ورياضياته، ولكن عن طريق المخيلة هذه المرة، مثلما كان دون كيشوت يتجول ليحقق في مخيلته حلم العدالة، والفرق بين

ديكارت وكامبانيلا هو الفرق بين من يكتب وهو جالس حول المدفأة في الشتاء، ثم يتنزه في شمس الربيع متزيناً بسيفه، وبين سجين مقيد يحلم بالحرية... والشمس.

٧
―
١٣

على كل حال، فان فرانسيس بيكون، سيزور هذا المتحف الطبيعي وسيرى هذه الصور العلمية، وبالتالي سيأخذ طرف الخيط اليوتوبي – العلمي، ويحول هذا المتحف الى مختبر كما سنرى.

بقي ان نذكر ان اسم كتاب كامبانيلا الكامل هو : «مدينة الشمس : حوار شاعري» ويعلق مترجم مدينة الشمس الى العربية حسن شكري على عبارة «حوار شاعري »بانها كانت للفت الانتباه الى شخصية الشخصية الروائية في الكتاب، فكما في كل رواية يجب ان يكون هناك راوٍ يروي، والرواية خيال، أما الشعر فهو غير موجود في مدينة الشمس الا في «رؤيتها» وفي كتابة المعادلات الرياضية على أسوار المدينة، لكن على الفن الروائي عموماً، ان ينتظر قليلاً قبل أن تنمو البذرة الفنية لرواية دون كيشوت ويصبح بامكان الفن الروائي «التدخل» في الواقع لقلبه عن طريق وصفه كما في اليوتوبيا التي بدأت تهندس وتبني، أي تتحقق على أرض الواقع، هذا الواقع الذي سيكون فضاء الرواية ومجالها كما سنرى فيما يأتي.

صعود فرانسيس بيكون

الذي لايمكن إيقافه

الفصل السابع

صعود فرانسيس بيكون الذي لايمكن إيقافه

«ما أنا إلا نافخ بوق»

فرانسيس بيكون

٨

١

في الأسطورة أن هرقل كتب على صخر مضيق جبل طارق الذي ينفتح على المحيط الأطلس عبارة:

«هنا الحدود.. لاتتجاوزوا»

فبعد هذا المضيق كان هنا كما سماه العرب «بحر الظلمات»، أو المجهول، وغير المعروف أو المكتشف، ويبدو أن مأثرة كريستوف كولومبس كانت في أنه لم يقرأ هذه العبارة، أو لم ينصع لها على الأقل، فكولومبس لم يعترف بحدود هرقل المنقوشة على أعمدة جبل ملقارت «جبل طارق» بل وذهب أبعد، فأبعد، متجاوزاً المضيق، ومبحراً في بحر الظلمات، هذا البحر الذي لامس عقبة بن نافع شاطئه على ظهر جواده وهو يقول: اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك. وكما بين التاريخ فيما بعد، فسفينة كولومبس الشراعية، والسفن البخارية فيما بعد، كانت أكثر جدوى وفاعلية من خيل عقبة بن نافع للجهاد «في سبيل الله»

$\frac{8}{2}$

إذا كانت سفن كولومبس الثلاث البنتا والنينا والسانتا ماريا، قد ذهبت أبعد من جبل طارق، متجاوزة تحذيرات هرقل فوصلت أمريكا، فإن السير فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) اكتفى بأن رسم على غلاف كتابه «الأورجانون الجديد» سفينة انكليزية ذات سوار ثلاث تعبر مضيق جبل طارق، دون أن تنظر إلى تحذيرات هرقل: «لاتتجاوز» وقد كتب بيكون على غلاف كتابه تحت رسم السفينة هذه العبارة، التي يبدو وكأنها تحد لعبارة هرقل، أو رد عليها:

«أبعد.. وأبعد..»

بالطبع كان بإمكان كاتب اسباني أن يكتب هذه العبارة على غلاف كتاب له بدل أن يكتبها كاتب انكليزي، لولا أن الانكليز كانوا قد هزموا الاسبان، ودمروا سفن اسطول الارمادا العظيمة، فاكتسبوا حقوق السيادة والبحرية، حقوق الفتح ومتابعة الاكتشاف.. والسيطرة، فالتاريخ في حركته لايهتم بالجنسيات والأفراد، فيما يبدو، بينما اكتفى الاسبان بأحلام دون كيشوت. وعلى كل حال فالمهمات يجب أن تنجز عندما يأتي أوانها، وبغض النظر عن اسم الفاعل ،وجنسيته، فأوروبا منذ اليوم ستبحر «أبعد... أبعد..» سواء كان اسم البحار جون ستيوارت.. أو بدرو سانشيز.

$\frac{8}{3}$

ويقول بعض مؤرخي الفلسفة إن بايكون قرأ «مدينة الشمس» لكمبانيلا ورأى الصور العلمية، بل والمتحف الطبيعي المرسوم على جدران وأسوار «تابروبانا» ويبدو أنه التقط «خيط» المدينة العلمية من «مدينة الشمس»، ثم فكر في رسم مدينة مشابهة، خيالية، لكنها هذه المرة، علمية، اختراعية، عقلانية، ومهندسة جيداً، وإن كان لامجال فيها

للعواطف والانفعالات والمشاعر والأخلاق الانسانية كما سنرى فيما بعد. إنه المشروع والحلم الانساني - اليوتوبي، وقد انتقل من مرحلة الحلم والتخييل إلى مرحلة الرسم الهندسي على يد فرانسيس بيكون، إنه الحلم وقد صار مشروعاً علمياً، واليوتوبيا وقد صارت مكاناً معيناً ومتحققاً، ولهذا فمن الطبيعي أن تبدأ اليوتوبيا في التحول إلى ايديولوجيا مع فرانسيس بيكون، مادام أن الحلم سيصير واقعاً، واللامكان سيصير مكاناً. فقوانين المكان وقواعده غير قوانين الحلم واليوتوبيا وقواعدهما.

فلنتابع إذن رواية هذه اليوتوبيا، ويوتوبيا هذه الرواية، وهما ينتقلان على صهوة العقل والحلم والمشروع البورجوازي الاجتماعي - العلمي، الصاعد، لنتابع وجهاً آخر لحلم ديكارت بعلم مدهش، وهذا الحلم هو حلم بيكون بـ «اطلنتس جديدة».

٨
―
٤

كان أفلاطون قد تحدث في إحدى محاوراته عن قارة ضائعة في عمق المحيط الأطلسي، ويبدو أن فرانسيس بيكون قد وجد هذه القارة الضائعة أو هكذا ادعى على الأقل، ولكن ليس بواسطة الابحار على متن سفينة شأن كولومبس، بل بواسطة المخيلة، فثمة في مكان ما، مابين العالم القديم «أوروبا» والعالم الجديد «أمريكا» مدينة اسمها «بنسالم» وهذه المدينة هي مؤسسة أو أكاديمية أشبه بمركز أبحاث واختراعات معاصر وإذا كانت أكاديمية أفلاطون منتدى «لشيوخ، عاجزين يتحدثون إلى شباب حمقى» كما سخر بيكون من أفلاطون وأكاديميته، فإن أكاديمية فرانسيس بيكون أو «دار سليمان»* كما سماها، وسليمان هو

* كانت معجزة سليمان الثانية هي الحكمة، أما معجزة «دار سليمان» الجديدة فهي: العلم.

الذي بنى هيكلها بواسطة الجن كما تعرفون، مثلما تمتلئ بنسالم باختراعات كأنها من صنع الجن أيضاً، أقول ان أكاديمية سليمان هذه مشغولة بالبحث والعمل والاختراع، فكل المعارف هي ميدان بحث هذه الأكاديمية، تماماً كما قال بيكون أن ميدان بحثه هو كل معارف الانسان الشاملة، ولذلك هناك تجارب في أكاديمية سليمان هذه على ابتكار المعادن الصناعية وتخصيب الأرض، بل وتطويل عمر الانسان، وثمة تجارب لمعرفة أحوال المناخ وتقلباته ولتهجين النباتات والحيوان، ونقل الجبال من أماكنها، ثمة تلسكوبات ضخمة، توربينات، آلات تسير بقوة البخار «لم يكن البخار قد استخدم بعد» وثمة تجارب ميكانيكية وهندسية، وتجارب على التبريد الصناعي وسفن تغوص تحت الماء و «طائرات» تحلق في الفضاء، وتقلع عمودياً من مكانها، ثمة هواتف وتلفزيونات ،ثمة... وثمة.. الخ، كل ذلك في عام ١٦٢٠، وكما قال محرر الموسوعة الفرنسية دالمبير فيما بعد:

«أطلنتس بيكون دليل لما تبقى علينا اكتشافه»

وبالفعل لم تفعل العلوم الغربية خلال القرون التالية إلا تحقيق قائمة الاختراعات المتخيلة في يوتوبيا بيكون: أطلنتس الجديدة، فأين هو متحف كامبانيلا من مختبر بيكون..

٨ / ٥

كانت يوتوبيا مور تدعو إلى المساواة والتسامح، وتحلم بهما، وكانت يوتوبيا كامبانيلا تدعو إلى الاشتراكية والعلم، أما يوتوبيا بيكون، فهي يوتوبيا تقنية بلا أي دعوة أو طموح أو حلم اجتماعي، إنها مدينة صناعية لانعرف شيئاً عن علاقات سكانها الاجتماعية، تقنية بلا روح مثل مدينتنا المعاصرة، وربما كان الفرق بين اليوتوبيات السابقة على

مـور ويوتوبيـا بيكون هو الفـرق بين الأخـلاقي القـويم «مـور» والثـائر «كامبانيلا»، وبين فرانسيس بيكون القاضي المرتشي والذي ساهم في الحكم بالاعدام على صديقه وارتكب أفعـالاً وصـفـهـا مـؤرخ الفلسـفـة العربي عبد الرحمن البدوي بأنها «سفالات» كل ذلك في سبيل صعوده، وحصوله على المال، لينفقه على تجاربه واختراعاته، كما سوغ سعيه وراء المال والمناصب. وقـد قـال إنه يود كـتـابة كـتـاب عن أخـلاق أهل أطلنتس الجديدة أو عن الأخلاق عامة، لكنه لم يكتب هذا الكتاب على أي حال، لكن مهلاً:

تقنية بلا روح، وتقني بلا أخلاق، وفرد طامح للسيطرة، ومعرفة في سبيل المنفعة في هذه الحياة الدنيا، وإهمال للعدالة والأخلاق الانسانية، أليست تلك سمة أساسية للفرد البورجوازي الصاعد؟ البورجوازي المسلح بفرديته وعلمه، ولكن كيف يكون العلم أداة للسيطرة، ولفرد وطبقة وقارة صاعدة إلى مكان السيطرة التاريخية؟.

$\frac{٨}{٦}$

كانت المعرفة – العلم – طريقاً للسعادة الذهنية لدى اليونان والعرب من بعدهم هذا مـانقـرأه في فلسفـة الأخـلاق ونظرية المعرفـة اليـونانيـة والعربية معـاً. لكن بدءاً من عصـر النهضـة بدأ هدف المعرفة والأخـلاق يتغير، وربما الذي بدأ يتغير هـو مضمون كلمة «سعادة» فهدف المعرفة صـار في المرحلة الجديدة هو القـوة كمـا ألمح إلى ذلك كـامبـانيـلا في ثلاثيته الشـهيرة: عقل، علم، قوة، أما لدى بيكون فقد اكتمل اكتشـاف وصـوغ المعادلة التي مازالت أوروبا والبشـرية كلهـا تسيـر على هديهـا وتطبـيـقـهـا: المعـرفـة قـوة، القـوة سـيطرة، لـكن كـيـف يـحـصـل الانسـان الضعيف على القوة في طبيعة وكون أقوى منه بما لايقاس؟

هنا كان إنجاز وإعجاز فرانسيس بيكون، وهنا كانت الخطوة الأولى في صعود فكره الذي لم يمكن إيقافه منذ لحظتها. وهذه هي «يوتوبيا» فرانسيس بيكون.

٨

٧

«نسيطر على الطبيعة عن طريق الخضوع لقوانينها» تلك هي عبارة بيكون السحرية، ذلكم هو «خاتم سليمان» السحري، وذلكم هو أصل العبارة التي رددها اسبنوزا بعده، ونسبها الماركسيون لأنجلز فيما بعد وكأنه أول من صاغها، ومؤدى عبارة بيكون واضح وسهل: علينا أن ندرس الطبيعة ونتفهم قوانينها، ومن ثم نتجاوزهما، وهكذا الحرية هي معرفة الضرورة أو القانون، تمهيداً لخرقهما، وهل الطيران في الفضاء الكوني إلا خرق لقانون الجاذبية مثلاً؟ وإذا كان بالامكان معرفة القوانين الطبيعية وخرقها أو اختراقها، فأي شيء يمكن أن يحدُّ الانسان، مخيلة وقدرة، لما لايتخيل بيكون ماتخيل في «أطلنتس الجديدة» وقد عرف أن خرق قوانين الطبيعة ممكن، وأن بالامكان تجاوز مايحد قدرة الانسان على الحركة، فليغص الانسان تحت الماء، وليطر في السماء، ولينقل الجبال من أماكنها، وليرسم بيكون دليلاً لآمال الانسان وأحلامه التي يعوقها عدم معرفة قوانين الطبيعة عن تحقيقها، وعندما تعرف هذه القوانين فستتحقق تخييلات بيكون بالضبط، وعلى كل حال هذا ماحدث في حركة تطور أوروبا، فالعلم صار منفعة الانسان لاغير، العلم الذي هو تمديد وتطويل لقدرات الانسان وحواسه المحدودة والمقيدة بوضعه الأرضي، أي بقوانين هذه الطبيعة، بعد أن فهم أسرارها: وقوانينها.

على الخيال اليوتوبي أن يصير بعد بيكون خيالاً علمياً، أو علماً متحققاً، وعلى اليوتوبيا أن تصير ايديولوجية محددة «ايديولوجية تقنية».

تقنية حُذف منها الدين والروح والأخلاق والمثل الأخلاقية، على الخيال اليوتوبي أن يصير مشروعاً للانجاز، وسرعان ماسيأتي من يطلب من هذا الانجاز العلمي ذي الطابع النفعي: الربح، والربح فقط، وسرعان ماسيمتلك هذه المعرفة وهذا العلم، فرد، طبقة، وقارة تسيطر بهما على البشرية بعد أن سيطرت على الطبيعة.

مع فرانسيس بيكون، ألقت البشرية على عاتق العلم مهمة قيادتها نحو اليوتوبيا واستعادة الفردوس المفقود أو تحقيق السعادة في الواقع، وليس في الذهن، وقد تكفلت الطبقة البورجوازية الأوروبية االصاعدة آنذاك بـ «التزام» هذا المشروع، وتكفلت هذه الطبقة القيام بمهمة «التمثيل والنيابة» عن البشر في تحقيق اليوتوبيا الأرضية التي باتت عملية تقنية، وليس مصادفة أن نظرية «النيابة والتمثيل» في الفكر السياسي الأوروبي بدأت في الظهور خلال هذه الفترة، وسنرى في فصل لاحق قصة صعود هذا الممثل، النائب، أي السيد البورجوازي، والذي انتدب نفسه لمهمة إنجاز الحلم البشري: اليوتوبيا، وأوراق اعتماده، أو سلاحه: العلم.

٨
―
٨

المعرفة هي القوة والقدرة، والعلم هو القوة، والقوة سيطرة، وبذلك أصبح العقل العارف هو العقل العالم، والعقل العالم هو العقل القادر، والعقل القادر هو العقل الفاعل، وهذا العقل الفاعل ليس إلها أو تمثلاً ذهنياً، بل هو الانسان وهو «يفعل» في البحار والقفار والواقع، والسفينة تمضي أبعد فأبعد أيها الجبار هرقل، وماعاد بحر الظلمات عقبة في سبيل الجهاد والفتح أيها القائد العربي.

ليس العقل والعقلانية والرياضيات والفيزياء مجرد تأملات ومحاكمات وعمليات ذهنية كما عند ديكارت، فعقل فرانسيس بيكون هو

معرفة، ومعرفته قوة، وقوته سيطرة، وهل يوجد إلا الأرض والفضاء والبشر مجالات للسيطرة؟

ليس الزمن زمن التأمل العقلي الذي يجري في غرفة حول مدفأة ياسيد ديكارت والرياضيات والفيزياء منقعة، والفردية مبدأ للوجود الاجتماعي، والعقل ركب سفينة كتب على شراعها وهي تتجاوز بحر الظلمات نحو أمريكا الحلم/ المجهول/ اليوتوبيا: أبعد.. أبعد..

وأخيراً مات فرانسيس بيكون، وهو يجري تجربة على تبريد دجاجة، وكما ترون هي ميتة تليق بعالم رائد، ولكن قبل مغادرة فرانسيس بيكون، دعونا نقرأ له هذا النص الذي يلخص فيه رؤيته وفلسفته، هذه الفلسفة التي سترفع رايتها بورجوازية وقارة صاعدتان بها، ومسيطرتان عن طريقها حتى اليوم:

«نلاحظ أولاً أن استحداث الاختراعات العظيمة يبدو عملاً من أروع الأعمال البشرية.. كذلك ينبغي علينا أن نلاحظ قوة المخترعات وتأثيرها ونتائجها، وهي أمور أوضح ماتكون في تلك المخترعات الثلاثة التي لم يعرفها القدماء: وهي الطباعة والبارود والبوصلة. ذلك لأن هذه المخترعات الثلاثة قد غيرت وجه العالم بأسره، الأولى في ميدان العلم والثانية في ميدان الحرب، والثالثة في الملاحة، وهي قد أحدثت تغيرات لاحصر لها، بحيث يمكن القول أن أية مملكة أو مذهب ديني أو نجم فلكي، لم يكن له من التأثير في شؤون البشر أعظم مما يكون لهذه الكشوف الميكانيكية.

وجدير بنا أن نميز بين ثلاث مراتب من الطموح: الأولى طموح أولئك الذين يسعون إلى زيادة قوتهم الخاصة في بلادهم، وهو طموح وضيع منحط، والثانية طموح أولئك الذين يسعون إلى زيادة قوة بلدهم

وسيطرته على البشر، وهو طموح أرفع من السابق، ولكنه لايقل عنه طمعاً. أما إذا حاول امرؤ أن يستعيد ويوسع قوة الجنس البشري في عمومه، ويزيد من سيطرته على الكون، فإن مثل هذا الطموح (إن: جازت تسميته بهذا الاسم) إنما هو أشرف وأنبل من النوعين السابقين معاً. على أن سيطرة الانسان على الأشياء. إنما تقوم على الفنون العملية والعلوم وحدها «إذ أن الطبيعة لاتحكم إلا بإطاعتها».*

٨

٩

هذا هو فرانسيس بيكون: عقلاني، تجريبي، عملي، نفعي، مشرع المنهج الجديد للعلم وللسيطرة على الطبيعة، الحالم، بأن يسيطر الانسان على الكون، وبأن تروض الطبيعة عبر اكتشاف أسرارها وقوانينها، لكنه إلى جانب ذلك لايقيم أي اعتبار للقيم، فليس في فلسفته مكان للميتافيزيقيا، أو الله، بل ولم يدخل في هذه المسائل، لكن الرشوة عنده مقبولة، والواجب تجاه الملك أهم من الواجب تجاه الأصدقاء، كما سوغ موافقته على إعدام صديقه اللورد «اسكس» بيكون الرجل الذي حكم عليه بغرامة مقدارها ٤٠ ألف جنيه، والحبس في البرج ماشاء الملك، ثم وعدم الأهلية لتولي المناصب الحكومية.

بيكون الذي يفصل بين الدين والسياسة، بربكم أليست هذه صفات البورجوازية. والفرد البورجوازي بامتياز؟

---

* «نقلاً: الاورجانون الجديد لفرانسيس بيكون، د. فؤاد زكريا. تراث الانسانية – المجلد الرابع» والتشديد مني م.خ.

لكن لنتابع رواية ظهور الرواية، وظهور اليوتوبيا وظهور العلم، ورواية ظهور البورجوازية وظهور الشعب على مسرح الحدث التاريخي الأوروبي. لنتابع هذه الملحمة الهائلة التي نقف اليوم في محطتها الراهنة، غير عارفين إلى أين سنصل وقد تخلينا عن حلمنا اليوتوبي، وربما تخلى عنا هذا الحلم في حضارة بيكون الباردة المذهلة، المريحة وفاقدة الروح معاً، حضارة أو يوتوبيا، يبدو لنا فيها، وكأن كل ماهو قريب يبتعد، كما كان غوته يقول، وكل ماهو أثيري يتبدد، كما كان ماركس يقول أيضاً.

اليوتوبيا ، المدينة ، الرواية

الفصل الثامن

اليوتوبيا ، المدينة ، الرواية

٩
—
١

قرب القلاع القديمة المأهولة، بدأت تجمعات سكنية جديدة تقام أواخر العصور الوسطى، وغالباً ماكان مشيدو هذه المساكن رجالاً يحملون بضائع وينتقلون بها من قلعة إلى أخرى، ومن ريف إلى آخر، ولذا، وبعد أن تعب هؤلاء التجار المترحلون والذين سمو بذوي «الأقدام المغبرة» كناية عن عدم استقرارهم، بدأوا يلقون عصا الترحال حول القلاع والتجمعات السكنية، ويبنون «دكاكين» يضعون ويعرضون فيها سلعهم، ومع تنامي هذه الدكاكين بتنامي القلاع والبلدان والهجرة إليها من الريف، ومع ازدياد السكان وازدياد وتنوع حاجاتهم، بدأت تتكون ضواح وامتدادات للقلاع والبلدات القديمة، وهكذا بدأت في التكون «المدينة» الحديثة في أوروبا عصر النهضة على مايبدو، وقد سميت هذه التجمعات السكنية الجديدة «بورج» والساكن الجديد فيها بورجوازي.

٩
—
٢

لكن هذه المدينة التي بدأت مرحلة تكونها، كانت تحتوي أخلاطاً مختلفة من البشر، وهذا الخليط الغريب عن بعضه بات يحتاج أمناً وقوانين، أي سلطة، فساكن المدينة الجديد هذا، أي البورجوازية قيد التكوين، يحتاج لحماية شخصه وأمواله وسلعه، قوانين لحل مشكلات التبادل والتعامل التي تنشأ عن مهنته الجديدة هذه، نقل السلع، أو

التجارة، وهكذا بدأ يتكون مجتمع جديد، يجذب إليه الفلاحين الهاربين والجنود المسرحين والمفلسين و «ذوي الأقدام المغبرة»، وكل من تطيب له الإقامة، أو يقف به الطريق.

ويبدو أن هذه التحولات الجديدة لحياة أوروبا التي كانت تتكون تجمعاتها السكانية من قلاع وريف وموانئ، قد بدأت في الحصول والتحول نحو «المدينة»، قرب الموانئ الكبيرة، وفي هولندا، على ضفاف الأنهار الكبيرة، وفي موانئ ايطاليا وفرنسا التي تتعامل مع الشرق والأندلس مثل جنوى والبندقية ومرسيليا وبحكم الحاجة لإدارة هذه التجمعات السكانية الطارئة والكبيرة، نشأت «هيئات» لإدارتها ذاتياً، فالمؤسسة الدينية كانت تلبي حاجات مجتمع ريفي آخر، مجتمع يتألف من قلاع وريف وبلدات صغيرة وعائلات مستقرة تتناقل ثرواتها ومراكزها بالوراثة، ولها مشكلات وحاجات وطموحات محدودة ومعروفة، أما في هذه المجتمعات الجديدة، فثمة شكل جديد للتعايش والتعامل، ثمة مجتمع «مدني» جديد، وعليه أن يحكم ذاته بنفسه، وهذا التجمع الجديدمن صنع التاجر أولاً، وقد صار كذلك مجال نشاطه، وكلمة بورجوازي كانت آنذاك تعني هذا التاجر بالتحديد، هذا التاجر الذي كان أول من وضع حجر الأساس في «البورج» الجديد ،ولذا استحق أن يشتق اسمه من مكان سكنه، بل واستحقت المدينة والحضارة اللتان أنشأتا انطلاقاً من هذه العملية - اللحظة التاريخية، أن تنعتا بالبورجوازية.

$\frac{٩}{٣}$

أسلفنا أن هذا المجتمع الجديد الذي أنشأه هذا التاجر الجوال، بعد أن استقر، كان بحاجة لإدارة. جديدة، وسرعان ماابتكر شكل الادارة الجديدة المكلف بإدارة هذه البلدات، فسمي «بلديات» وقد دخلت

هذه البلديات في صراع سافر وعنيف مع السلطة القديمة - داخل القلعة القديمة - أي مع الكنيسة ورجال الدين، وتبين أن رجل الدين يريد تطبيق شريعته المتوارثة على هذه البلديات وهؤلاء التجار، مثل منع الفائدة، وهل التجارة إلا فائدة؟..

بالطبع كان التاجر الجديد يريد كسر القوانين والشرائع القديمة التي تعوق حركته، وإقامة شرائع وقوانين جديدة تناسب ما استجد، فإذا كان رجل الدين يتعامل مع فلاح ينتج ليعيش ويعطي شيئاً للسيد، وشيئاً للرب، ممثلاً بكنيسته، فقد صار يجابه اليوم «تاجراً» لاينتج، وكل فضائله أنه ينقل السلع من هنا إلى هناك - ليس بيده بالطبع - أو يخبئها إلى وقت الحاجة، وفيما بعد فإن هذا التاجر سيكلف الآخرين بصناعة السلع لحسابه، ويأتي بهم من القرية ويسكنهم في «البورج» وبعد أن يجهز لهم الأنوال والآلات والمواد الأولية، يتولى عملية التصنيع إضافة إلى عملية التوزيع. وهكذا تضخم هذا «البورج»، وبدأ يخرج عن كل سيطرة، وبذلك اشتدت قوة السيد البورجوازي، كانت المعركة شديدة وقاسية بين الكنيسة ورجالها، وهذا السيد البورجوازي الجديد، وكان «الملك» أو الأمير على الأصح يقف على التوازي والتوازن، ويميل مرة هنا ومرة هناك حسب مصلحته، ولكن دخل في هذا الصراع عنصر جديد هو الشعب، هو السكان العاديون والعمال في هذا «البورج» الجديد، في هذه المدينة، فهؤلاء السكان القادمون إلى المدينة، والذين كونوها وبنوها بعملهم وتجمعهم، شعروا بحضورهم، ولاسيما عندما كان أحد أطراف النزاع يحتاج إلى مساعدتهم، ويبدو أن هذا العنصر الجديد - الشعب - كان أقرب بروحه وآماله وتطلعاته إلى عقلية وآمال السيد الجديد، وهذا طبيعي، فالتجمع الجديد، مدين بوجوده أصلاً لذوي الأقدام المغبرة، وهو يعبر عن حركتهم وطموحاتهم، وهكذا انتصر هذا السيد الجديد، فبنى مدينته على هواه، ثم وطد أركانها وحكمها، وعلى الفلاسفة والمفكرين والروائيين القادمين والحالمين أن يأخذوا هذا الوضع

الجديد بعين الاعتبار، فبعد اليوم لن يكون هناك جزر سعيدة إلا في أحلام اليقظة، وسرعان مافهم الفلاسفة والمفكرون آلية هذا الوضع الجديد، وشرعوا في وضع الفلسفات والنظريات والتخييلات المناسبة لهذا النظام الجديد الذي مايزال يتكون من تحت إلى فوق، وهكذا مع ظهور دور «الشعب» على هذا المسرح التاريخي، ظهر فن جديد مناسب هو «الرواية» كما يشير إلى ذلك ميخائيل باختين.

٩
—
٤

لم يقدم ميكافيلي ١٤٦٩ - ١٥٣٢ اختراعاً أو اكتشافاً جديداً، لكنه وصف في كتابه «الأمير ١٥١٣» واقع الحال لهذه التجمعات الجديدة التي بدأت تتكون، ولأنه قال ماحاول الآخرون إخفاءه في ممارستهم السياسية في هذه المدينة الجديدة، فقد بدا قوله فجاً وفاضحاً، بل وفضيحة. لكن الذنب لم يكن ذنبه، فهكذا يصعد الأمراء في هذه المدن الوليدة كما يرى، وخلال غابات الفوضى والفتن والمجازر والمكائد والاغتيالات والحروب، والقوي في هذه الغابة هو الذي يصعد، ، وببساطة كان ميكافيلي مشرعاً آخر لما سماه «الماوردي» في التراث العربي «امارة الاستيلاء» فغاية الأمير لدى ميكافيلي هي القوة والأمن في الداخل والسيطرة في الخارج، وفي سبيل هذه الأمور لامكان للفضيلة، ويزيد ميكافيلي فيصف كيفية الاحتفاظ بامارة الاستيلاء هذه، فالسلطة هي لأولئك الذين يستطيعون الاستيلاء والحفاظ عليها في هذا «التنافس الحر»، لهذا فإن ماكتبه هذا الفيلسوف السياسي على أنه نصيحة للأمراء، كان في حقيقته وصفاً لما رأى وعاش، ووصفاً لسلوك أمراء المدن الايطالية الجديدة وصراعاتهم وطرق صعودهم للسلطة، مثلما هو «تشريع وشرعنة» للسلطة الجديدة.

لكن تضخم المدن الجديدة، وتشابك علاقاتها، وبداية تكون الدولة القومية من مجموع هذه المدن، أي بداية تكون «شعب» يشعر بهويته، أو قوميته، وبداية انفتاح سوق كبيرة، هي هذا الشعب، وهذه القومية إياهما، احتاج تنظيماً وتنظيراً أرقى بل وسلطة، مادية وقانونية، أقوى من سلطة أمير فرد في مدينة، أو مقاطعة، وهكذا جاء وقت توماس هوبز للتنظير والتخييل لـ: هذه الدولة العتيدة، جاء الرجل الذي باهى بأنه هو والخوف توأمان، فقد ولد عام هجوم الارمادا على بريطانيا.

٩
―
٥

جاء توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) هذه المرة، لاليصف واقع الحال فقط بل ليتنبأ ويتخيل كذلك،، ليصف ويتنبأ ويتخيل آلية الدولة القادمة والتي هي على شكل تنين (لواياثان) بحري هائل لاأحد يستطيع الوقوف في طريقه، وبيده مقاليده السلطتين الحكومية والدينية.

جاء كتاب اللواثيان «١٦٥١» ليصف الدولة الحديثة أو يتخيلها على شكل كائن خرافي، أو وحش بحري هائل يلتهم كل الوحوش والبشر، فأين «أمير» ميكافيلي ذو الخدع الصغيرة ودسائس البلاط من هذا الأمير الأكبر، والذي هو الدولة مجردة ومشخصة، وليس مجرد فرد؟ جاء الكائن الذي صنعه البشر في اجتماعهم، فالتهمهم جميعاً.

هوبز مثل ميكافيلي يطرح الأمور طرحاً مباشراً، وربما فجاً، وحسبك أنه قائل عبارة (الانسان ذئب على الانسان) وقد كان يرى أن هذه الحياة، هذه المجتمعات، هذه المدن، هي «حرب الجميع ضد الجميع» وهي بعبارة صريحة «فوضى في فوضى»، ولايقاف هذا الحيوان الانسان عند حده، لابد من حيوان أكبر وأقوى منه يضبط الأمور في هذه الغابة، وهذا الحيوان الكبير هو «اللواثيان» أو الدولة. صحيح أن

الانســان هو الذي صنع وخلق هذا اللواثيــان، ولكن على هذا الكائن الخرافي أن يتحكم ويستبد بهذا الشرير الصغير - الانسان - ويوقفه عند حده.

يجب أن تقوم الدولة، ويجب أن تكون قوية بحيث تبدو كل محاولة للتمرد عليها نوعاً من الجنون. فليهنأ الانسان في ظل هذا اللواثيان الخيالي، وليكف عن مشاغباته وشروره ومكائده الصغيرة، وليفهم الأمــراء والحكام ورجال الدين أنهم مــجـرد أدوات صــغـيـرة في يد «اللواثيان» الخرافي.

كان وحش اللواثيان هذا من ابتكارالصناعة، وهو في الواقع إنسان صناعي كما يصفه برتراند رسل، وربما هو آلة أو مصنع كبير، لكن هذا الوحش الصناعي المسيطر، والمستبد كذلك، هو من نتائج أفكار بيكون كذلك، فهوبز كان مساعداً لبيكون، ولهذا فلا عجب أن تصبح النظرة أو المعرفة السياسية لدى هوبز تنظيراً للقوة والسيطرة كما لدى بيكون، وقوة الدولة، وآلتها خصوصاً.

٩
―
٦

هكذا، ومنذ البداية تقريباً، ومع صعودها، صودرت أحلام اليوتوبيا، أحلام الجنة الأرضية والمساواة والعدالة، وقفزت المخيلة سريعاً من تخييل «اليوتوبيا» والحلم بها، على شكل جنة أو جزيرة جديدة تسودها العدالة والمساواة والسعادة عموماً، إلى دولة اللواثيان الرهيبة، ولن يطول الوقت حتى تقوم الثورة البورجوازية الفرنسية، لتعلن استيلاء سكان المدن الجدد هؤلاء بأفكارهم وتخييلاتهم ونظرياتهم على مسرح الحدث التاريخي، وسدة الدولة البشرية الحديثة، هذه الدولة التي يديرها بشر تخلوا عن فكرة الفاعل، المحرك، الحاكم الخارجي، ونصبوا الفاعل، المحرك، الحاكم البشري، في إدارة وقيادة شؤونهم التي باتت

حياتية دنيوية محضة، ولهذا فلن يطول الوقت حتى ينتقل الفكر الأوروبي من اسطرة الدولة لدى هوبز، إلى تأليهها تقريباً عند فريدريك هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) واعتبارها مشيئة الله المتجلية والمتحققة على هذه الأرض، وكانت هذه المقدمات كافية ليعلن «فرانسيس فوكوياما» واعتماداً على هيجل، في عام ١٩٨٩، «نهاية التاريخ» بيوتوبياه وأحلامه، بآماله وأحزانه، وتخيلاته، وربما رواياته.

٩
—
٧

مجتمعات بشرية كبيرة، مدن مكتظة بخلائط متنافرة من البشر وتحلم بالسعادة والحرية والعدالة لكنها محكومة من قبل تنين هائل، هذا هو الوضع الجديد الذي بدأ يتكون ويتضح، فهل يتجول الحالم الكبير دون كيشوت في سهول المنشا الرحبة مطلقاً سراح المساجين، أم أن عليه أن يتجول في غابات المدن الجديدة، وبين شوارعها الضيقة ووحولها؟ وكيف يعرف هؤلاء الأخلاط الغرباء قيم الفروسية والعدالة، كيف يمكن أن يحترموا جمال حبيبة هذا الفارس دولسينا دي توبوسو؟ ما العمل؟ هل ينجو بقيمه ويهرب نحو جزيرة، بعد أن يقتنع أن قيمه وعدالته باتتا مجرد أوهام، أو أنهما مجرد قيم فردية وشخصية في أحسن حال، أم يمارس هذه الفردية، وبطريقة أنانية وذاتية في مدينة تتألف من ذوات يجمع بينها العمل والمعمل والصراع والصناعة أكثر مما تجمعها القيم والحياة الطبيعة؟

٩
—
٨

لم تكتظ هذه الشوارع وهذه المنازل، هذه المدن الجديدة بهؤلاء البشر؟ كيف ومن ماذا يعيش هؤلاء الناس؟

كما قدمنا، كان التاجر أو السيد االبورجوازي الجديد، وقد انتقل من مرحلة نقل السلع إلى مرحلة تكليف الآخرين بإنتاجها لحسابه، فصار بدل شراء السلعة مباشرة من الحائك مثلاً، يحضر المواد الأولية والمناسج، لينسج الحائك على حسابه، ثم يجمع مجموعة من الحائكين، مع مناسجهم، في مكان واحد، وهكذا انتقل المغزل الفردي إلى مؤسسة صغيرة، وهذه المؤسسة ماتلبث أن تندفع بآليتها الذاتية الاقتصادية وتطويراتها التقنية، لتصبح معملاً يعمل فيه العشرات فالمئات فالألوف.. وبقية القصة معروفة في كتب التاريخ والاقتصاد. وعلى كل حال، هكذا ابتدأ عصر المدينة- الصناعة، عصر الصناعة عموماً، عصر تقدم الاكتشافات الجغرافية وبناء الدولة القومية وتوسيع السوق القومية والدولية بل والقارية، وشيئاً فشيئاً كانت الثورة العلمية تحقق نفسها ومع تحققها تتحقق مدن وعوالم جديدة، تتحقق أفكار واكتشافات واختراعات وتخييلات ويوتوبيات وروايات جديدة.

٩
―
٩

في هذه الظروف تنامت أفكار لوثر والبروتستانتية، فإذا كان الفرد قد خرج عن جماعته الريفية وصار وحيداً في المدينة، فما حاجته لنوع السلطة القديمة؟ بل وأي سلطة قديمة تستطيع السيطرة عليه وقد تركها عند قسيس القرية الطيب، فهذا الفرد يعمل ويعيش ويتصرف بحياته وبمفرده، وإذا كان يقيم علاقة دون واسطة مع رب العمل، فلم لايقيم علاقة مباشرة ودون واسطة مع ربه؟ ماذا يستطيع القسيس أن يقدم لهذا الفرد مقابل ماقدم التاجر، وخصوصاً التاجر الذي تحول إلى صناعي؟ وهكذا تضافرت هذه الروح الفردية الجديدة مع نشوء المدن وازدهار التجارة والصناعة، فكان ذلك بداية طيبة للشخصية الروائية بفرديتها وانشقاقها عن قيم المجموع، مثلما كان بداية للانشقاق عن

روما الكاثوليكية، والصعود الكبير معاً للضمير الفردي البروتستانتي، وللسيد البورجوازي – الرأسمالي، كما حلل ذلك ماكس فيبر في كتابه «الأخلاق البروتستانتية وصعود الرأسمالية»، فكيف ستتخيل اليوتوبيا بعد اليوم، وماذا ستروي الرواية؟

$\frac{٩}{١٠}$

لكن الانسان يحلم ويفكر، يحزن ويفرح ويغني في كل الظروف وحيثما كان، ومدار الحلم والغناء والحياة والتفكير إنما هو حياة هذا الانسان، حياته اليومية خصوصاً، ولهذا فهو يكتب ويتخيل كأنما هو يغني أو يتألم، يكتب مايعيش ومايرى، مايعتقد ومايرغب، ولهذا فهو يبدع لكل حالة كتابة، ومن كل وضع ينشئ مخيلة، وفي كل زمن يبدع أدباً، وهل كاليوتوبيا أو الرواية كتابة ومخيلة تستطيع عرض مرحلة الآلام والآمال البشرية هذه؟ وهل يستطيع فن إذا لم يكن رواية أو كالرواية، كتابة هذا العصر- الواقع الجديد، عصر النثر والصناعة والفردية في مدينة مكتظة؟ ومن يكتب هذا الحلم المستمر، وهذا الخسران المستمر للحلم؟ لاريب أنها ملحمة جديدة بأن «تروى، لكن نثراً هذه المرة، ولهذا صارت الرواية ملحمة الحياة البورجوازية وعصرها كما حلل ذلك لوكاتش»

الزمن تغير، والانسان لم يعد محدوداً ومحصوراً في قريته أو مدينته، وحتى دولته وقارته، فالزمن والأرض والعلوم والشعوب كلها أصبحت مجالات للكشف والمعرفة والسيطرة، فمن اكتشاف أمريكا والشرق الأقصى، إلى امتلاك الهند، إلى إنشاء علم الاستشراق وعلم الصينيات والأنتروبولوجيا، إلى حل رموز الكتابات الهيروغليفية والمسمارية والفينيقية، وفيما بعد إلى الطيران في الفضاء، والغوص إلى تحت الماء، إلى تقريب المسافات، وإلغاء الحدود، أصبح الوجود البشري

والكرة الأرضية، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مجالاً رحباً وفضاء للنشاط والمخيلة الأوروبية، مجالاً وفضاء لفردية ونشاط هذا: التاجر، العالم ، الجندي، القسيس (فلا غنى عن القسيس في الخارج على الأقل) هذا هو اللواثيان العملاق، وتلك هي، كما تعرفون، محصلة: اكتشاف بيكون المدهش، والتي نعيش اليوم نتائجها ونتحقق من صحتها: المعرفة قوة. لكن تلك هي أيضاً الأرضية أو الفضاء الذي ستنطلق المخيلة، يوتوبية وروائية في فضائه ورحابه.

$\frac{٩}{١١}$

لامكان للعظمة والشعر في هذه المدينة الجديدة المكتظة بالعمال والتجار وموثقي العقود والآلات والجنود الطامحين والبغايا والطلاب. لامكان للرقة الشعرية والعذوبة في هذا الخضم المتدافع، ولامكان للسمو في غابة «حرب الجميع ضد الجميع» هذه، لامكان إلا للقوة والسيطرة على قوة العمل والذهب والمستعمرات والمناصب، لامكان لتراجيديات الآلهة والملوك، وماقيمة أي ملك تجاه هذا اللواثيان العظيم؟ ألم تقطع الثورة الفرنسية رأس الملك شخصياً؟ لامكان للشعر في هذه الدناءات، ولهذا سيأتي بدل الشعر النثر بتفاصيله الدقيقة، والتي هي وحدها من يستطيع متابعة هذه التفصيلات اليومية للأحداث وحياة هذا الجمهور المدني المتدافع، وبدل تراجيديا الملوك والآلهة والقديسين ستأتي دراما الحياة البورجوازية، بأحاسيسها ودوافعها وغرائزها ومصائر صعودها، وهبوط أفرادها الشعبيين، وهي مصائر وحيوات ليس فيها من العظمة والسمو التراجيدي إلا أقل من القليل.

بدءاً من اليوم ستكون الرواية ملحمة الحياة البورجوازية المدينية، ويوتوبياها وديوانها بل ومحكمتها، بدءاً من اليوم سترسم المصائر في المدن الجديدة، وسيجوب دون كيشوت الروائي وتابعه سانشو بانسا

دهاليز المدن ويتجول في وحولها وشوارعها ومحاكمها وفنادقها وملاهيها، لكنهما سيبقيان مخلصين لحلمهما ويوتوبياهما، دون كيشوت يحلم بالعدالة، وسانشو يحلم بجزيرة، لكن الجديد في هذه المرة أن دون كيشوت سيحارب مداخن المعامل، واللوائيان، والقوانين والفقر والاستغلال، وكل الصرح المديني – البورجوازي، بدل محاربة طواحين الهواء، كما كان يفعل سابقاً، ويبدو أن المهمة أصعب، وتتطلب سلاحاً وفناً، أو رواية أكثر تعقيداً.

لكن اليوتوبيا ستستمر في الرواية، طالما لم يحقق دون كيشوت العدالة المرجوة، وطالما لم يحصل الشعبي البسيط سانشو بانسا على جزيرته، اليوتوبيا ستستمر طالما استمرت المخيلة والأمل البشري موجودين، وربما تضاعفت الحاجة إليها للخروج من وحول هذه المدينة البورجوازية وغاباتها ومؤسساتها، فاليوتوبيا لن تقتصر بعد اليوم على التخييل الروائي بل سيكون التخييل هذه المرة على شكل روايات ونظريات وفلسفات واشتراكيات وأدب وخيال علمي... الخ.

٩

١٢

فلنعد إذن إلى السرد الروائي واليوتوبي:

هذا الدون كيشوت الذي مايزال يحلم، لكنه يحارب مداخن المعامل، ومؤسسات وقوانين المدينة البورجوازية الجديدة، بدل طواحين الهواء، وسلاحه مخيلته وفنه وسرده الروائي، سلاحه نظرياته وأفكاره وفرديته وجماعته، هو مدار الزمن الثاني لهذه الملحمة الكونية الروائية اليوتوبية، مدار الفترة التاريخية الثانية، وهو موضوع القسم الثاني من هذا البحث أيضاً.

القسم الثاني

حياة ومغامرات

روبنسون كروزو المذهلة

الفصل التاسع

حياة ومغامرات روبنسون كروزو المذهلة

١٠

١

بما أن «التاجر» ذا «القدمين المغبرتين» كان قد وضع الأساس الأول في المدينة الحديثة، فلم لايضع هذا «التاجر» أو أحد أحفاده حجر الأساس للفن الذي سيصف حياة هذه المدينة الحديثة؟ وبالفعل، هذا ماحصل، فأول عمل يشار إليه على أنه رواية «تامة الأركان» في العصر الحديث، وضعه تاجر هو دانيال ديفو ١٦٦١- ١٧٣١، أما الرواية فهي «روبنسون كروزو» (١٧١٥) التي بها يؤسس الفن الروائي الحديث، ولدى النقاد الانكليز خصوصاً.

بطبيعة الحال لم تكن قصص البحارة والمغامرين والمكتشفين وقصص الجزر قد نسيت بعد، فما تزال هذه القصص متداولة منذ صارت السفينة واسطة الاتصال الأساسية والوحيدة للعالم القديم بالعالم الجديد: أمريكا، ولهذا كان طبيعياً أن تكون الشخصية الروائية في «روبنسون كروزو» هي شخصية تاجر - بحار جنحت سفينته وغرقت في إحدى الجزر الأمريكية إياها، فنجا روبنسون كروزو، وهبط على هذه الجزيرة وكأنه آدم هبط على الأرض للمرة الأولى، لكنه كان هذه المرة بلا شعور بالخطيئة (*) بل هو مزود بذاكرة صناعية

---

*) يميل بعض النقاد الانكليز والعرب لتفسير روبنسون كروزو تفسيراً دينياً مسيحياً. في هذه الحالة ثمة خطيئة، لكن تحليلنا يأخذ منحى آخر.

وحضارية، فقد كانت «عدة النجارة» والبارود في جملة الأشياء الكثيرة التي أنقذها من السفينة الجانحة، والأهم أنه فرد وحيد، فحتى حواء لم تكن مع روبنسون كروزو في الجزيرة المهجورة، ولكن ما الحاجة إلى حواء، مادام قد اصطاد «بدائياً»وسماه «جمعه» ثم جعله خادماً يناديه: ياسيدي، فالخادم أكثر أهمية من الحب بالنسبة لذوي الأقدام المغبرة.

$\frac{١٠}{٢}$

مرة أخرى نعود إلى الجزر، والجزر الأمريكية تحديداً، فقد هبط روبنسون كروزو في إحدى هذه الجزر بينما كان في رحلة تجارية من مزرعته وتجارته في البرازيل إلى أفريقيا، للحصول على العبيد، وبيعهم أو تشغيلهم في مزرعته الأمريكية، فبعد أن غرقت سفينته ونجا وحده، وكأنه الراعي في سفر أيوب الذي هلك قطيعه ورفاقه في كارثة، فنجا وأتى أيوب قائلاً: «ونجوت وحدي لأخبرك» وفعلاً يبدو أن روبنسون كروزو نجا وحده، ولكن ليخبرنا كيف بنى عالماً جديداً، وليروي لنا قصة هذا العالم الجديد.

يبدو كروزو كسيد وحيد في جزيرته، تماماً مثلما الانسان سيد وحيد في هذه الطبيعة، أو على الأرض، ولكن لابأس من أن يكون له خادم، فحياة السيد مستحيلة دون الخادم، ألا يقتضي منطوق «السيد» وجود «المسود» أي الخادم؟

أقام روبنسون كروزو في جزيرته «ثمانية وعشرين عاماً وشهرين وتسعة عشر يوماً» لكن ماذا عن حياة روبنسون قبل أن تقذف به الأمواج إلى شاطئ هذه الجزيرة المهجورة؟

يروي روبنسون كروزو قصة حياته كما يلي:

«ولدت سنة ١٦٣٢ في مدينة يورك من عائلة معتبرة من بريمن، وكان أبي غريباً في تلك البلاد واسمه كروتزينو، فاستوطن أولاً في هول، وصار ذا مال بواسطة التجارة، ثم انتقل إلى مدينة يورك وأقام هناك(*)..

يبدو واضحاً أن روبنسون كروزو ليس رجلاً عظيماً، بل هو رجل عادي من الطبقة الجديدة الصاعدة، وهو تاجر ابن تاجر، أنشأ نفسه بنفسه كما يقال، ولهذا فمن الطبيعي أن يكون معتداً بنفسه، وأن تكون «أناه» مركز الأحداث، ووسيلته الفنية في القصص، هي «ضمير المتكلم».

ملاحظة أخرى، وهي تحديد تاريخ الميلاد، وهو أمر جديد في الفن القصصي آنذاك، ويشي كذلك باهتمام جديد بالزمن وتركيز للرواية عليه، وهذا التركيز والتحديد للزمن نشاهده في كل الروايات التي كتبها ديفو وكل الفن الروائي التالي، وحسبك تحديد كروزو لزمن إقامته في الجزيرة بالسنين والشهور، كما أن كروزو دون «يومياته» في الجزيرة وبتاريخها.

$\frac{١٠}{٣}$

على كل فقد تمرد روبسون كروزو على نشأته، وقرر أن يبني ثروته واسمه بيديه، فهاجر إلى البرازيل، وأنشأ «مشروعه الخاص» أو مزرعة كبيرة، مع بعض الجيران، حيث يقنعونه بالسفر إلى أفريقيا لإحضار

* نستخدم هنا ترجمة بطرس البستاني الصادرة عام ١٨٦١ بعنوان «التحفة البستانية في الأسفار الكروزية» وربما تكون روبنسون كروزو أول رواية تترجم للعربية كاملة إذ سبق ترجمتها عام ١٨٣٥ كما يقول بعض الدارسين العرب.

بعض المواد المربحة «العبيد» وفي هذه الرحلة تتحطم السفينة ويلتجئ إلى جزيرته المهجورة كما أسلفنا.

إذن لم تكن «رحلة» روبنسون كروزو في سبيل «العدالة» كما كانت رحلة دون كيشوت، وليس تجوالاً للعودة إلى الوطن كما «يولسيس» في الالياذة الهومرية، أو رحلة استكشاف ومعرفة أو استعمار كما رحلة كولومبس، ففي البرازيل – أمريكا– لم يجد روبنسون يوتوبيا، بل أنشأ مزرعة وتجارة، أي أنشأ يوتوبياه الخاصة، وإلى أفريقيا كان ذاهباً للحصول على العبيد، وليس لهدف آخر، كتحرير العبيد مثلاً، كما كان يمكن لدون كيشوت – مثلاً– أن يفعل، إنها ببساطة رحلة في سبيل المال، وحيث توجد النقود يذهب التاجر، والأماكن التي يصلها لن تكون بالتالي – يوتوبيا – ومارآه بحار «توماس مور» على أنه شعب يوتوبي في الجزيرة الأمريكية، يصفه روبنسون كروزو بـ «الأجانب والمتوحشين» وعلى كل حال فقد سافر روبنسون في رحلته كلها دون مباركة الأب أو الله، فما الحاجة لهذه البركات التي لايمكن تحويلها إلى نقود أو عبيد.

صحيح أن ضمير روبنسون كروزو يستيقظ بين حين وآخر فيتذكر الله والأهل، لكن ذلك يكون بشكل مؤقت، ووقت المحن والشدائد فقط، فعالم روبنسون كروزو يخلقه بعقله ويده وخادمه، ودون حاجة لاله، أما بعد انكشاف زمن المحنة، فإن روبنسون كروزو يعود إلى مايدعوه هو نفسه «تحجر ضميره» ولهذا فهو لايتورع عن فعل أي شيء، وحجته في ذلك «لايمكن فعل غير ذلك» وذلك حال «مول فلاندرز»* الفتاة التي تفعل كل شيء في هذه الحياة، وإلا كيف ستعيش في هذه المدينة الضخمة: لندن.

---

* الشخصية الأولى التي تدور حولها رواية ديفو الأخرى.

$\frac{10}{4}$

يقدم روبنسون كروزو قصة خلق جديدة، ولكن ليس بالمعنى الديني هذه المرة، وبكل تفاصيلها، قصة خلق مجتمع وصناعة في جزيرة مهجورة، وانطلاقاً، أو بواسطة فرد واحد، وإن كان يعتمد على خادم، فتلك كانت قيم أو أدوات إنتاج ذاك الزمن، إنها قيم وأدوات إنتاج البورجوازي الفرد الصاعد القادر على إعادة خلق وتكوين هذا العالم وبمساعدة الخدم، أو العمال فيما بعد، فما هي الحياة إن لم تكن مجموعة من التفاصيل والصناعات التي يحياها المرء؟ وماهي الحياة إن لم تكن مشروعاً؟ ذلك هو روبنسون كروزو، وتلك هي قصة خلقه، تلك هي «قصة الخلق» البورجوازية الصاعدة أو الجديدة. أو ذلك هو المشروع البورجوازي قيد التنفيذ، وتلك هي على الأدق اليوتوبيا كما تراها وتبنيها أوروبا الصاعدة.

$\frac{10}{5}$

كانت المدة أو الـ «ثمانية وعشرين عاماً وشهرين وتسعة عشر يوماً» هذه التي قضاها روبنسوس في خلق عالمه وتكوينه، رمزاً لعالم جديد تخلقه بورجوازية وروح جديدة، بل ونظام اجتماعي – اقتصادي تخلقه البشرية، انطلاقاً من أوروبا، والانسان المقذوف وحيداً في جزيرة، كحال روبنسون كروزو، معادل للانسان وللفرد المقذوف، «وحيداً» في زحام مدينة جديدة وعالم جديد، وهل من فرق أن تكون وحيداً في جزيرة مهجورة، مثل روبنسون كروزو، وبين أن تكون جزيرة مهجوة في بحر من البشر، مثل «مول فلاندرز» في رواية ديفو الثانية التي تحمل اسم شخصيتها الشهيرة، صاحبة الحظ العاثر والسعيد معاً.

ألست وحيداً في الحالتين، وعليك تدبير أمرك وخلق وتكوين حياتك؟

على كل حال، فروبنسون كروزو ليس من نسل الآلهة، وليس ابن نبيل، إنه فرد عادي، ورأسماله الوحيد خبرته وصبره وكده وخادمه، وبهذا الرأسمال، أو بهذه «الأدوات» عليه أن يصنع حياته، وبهذا السلاح عليه أن يحقق عدالته الخاصة به ويوتوبياه، أي ثروته ومركزه، وهذه هي الطريق التي مشاها «مغبرو الأرجل» ورجال الصناعة والادارة والجندية والاستعمار والمبشرون، في مقتبل تكوين المدينة الحديثة وصعود البورجوازية اعتماداً على فرديتهم وجرأتهم وخدمهم، وعلى أفكارهم ورؤيتهم الجديدة للعالم، والتي هي مزيج من فردية وعقلانية بيكون وديكارت، وواقعية ميكافيلي وهوبز، وتقشف وعقيدة لوثر وكالفن، وحقائق كوبرنيكوس وجاليلو، واكتشافات العلماءالآخرين، ممتزجة ومختلطة بأحلام وأوهام سرفانتس ومور، وجرأة كولومبس وقباطنة البحر الآخرين، ومعتمدين كذلك على ذهب أمريكا، وخيرات الهند والشرق و «عبيد» أفريقيا، وعمال أوروبا أخيراً.

$\frac{١٠}{٦}$

يقال أن دانيال ديفو استمد مادة قصته من بحار اسمه الكسندر سيكليرك، ذهب في رحلة بحرية إلى أمريكا، وترك سفينته ورفاقه ليقيم وحيداً في جزيرة مهجورة مدة أربعة أعوام تقريباً، وعاد بعد أن التقطته بارجة انكليزية عادت به إلى الوطن، وتلمح بعض الدراسات إلى احتمال تأثر دانيال ديفو بقراءة «حي بن يقظان» «لابن طفيل» وثمة كتاب مؤلف في اللغة العربية موضوعه المقارنة بين حي بن يقظان وروبنسون كروزو.*

* راجع: حي بن يقظان وروبنسون كروزو. حسن محمود عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ١٩٨٣.

بالطبع قد تكون حادثة البحار الانكليزي صحيحة، لكن أهميتها من الناحية الأدبية والنقدية، إنها تظهر لنا كيف تعمل مخيلة الروائي، هذه المخيلة الروائية المتشكلة حديثاً بالتزامن والتواشج مع النظرة الانسانية - البورجوازية - الأوروبية للعالم، هذه النظرة العقلانية، الواقعية، العلمية الفردية المتشكلة حديثاً أو التي وجدت في «المدينة» ومجتمعها وحياتها تجسدها العياني على مايبدو.

تقول هذه النظرة مايلي، فيما يبدو:

إذا كانت الطبيعة قد أصبحت مجالاً للمعرفة والعمل والسيطرة ومادة للكشف والاكتشاف، بل مجالاً وأرضاً للصناعة وإعادة التشكيل لكل شيء، وحتى للانسان ومخيلته، فلم لاتصبح هذه الحياة الجديدة، هذا الواقع، هذه العلاقات المدينية البشرية، مجالاً للمخيلة والابداع، وفضاء لتخييل مواز لهذا الواقع من ناحية، ومؤسس على أرضية هذا الواقع الجديد من ناحية ثانية؟ لم لاتصوغ المخيلة عوالمها بالتوازي مع هذا الواقع، بل ولم لاتشيد «فوق» هذا الواقع، واقعاً آخر له قوانين ومنطق وترابطات هذا الواقع إياه؟

في هذه الحالة ماالحاجة إلى اللغة اللاتينية والأوزان الشعرية والبلاغة السامية، وأمامنا الحياة بتفاصيلها ونثرياتها ووقائعها وبشرها، أما انقضى زمن النبلاء والملوك والآلهة والكرادلة، وأتى زمن التاجر ، الصانع، المستكشف؟

بالطبع فهذه الآلية التي تبدو بسيطة اليوم كانت منطلقاً للفن الروائي الجديد عموماً، ومنطلقاً لديفو خصوصاً: عالم في المخيلة وبواسطتها، لكنه عالم الحياة الواقعية بترابطاته وتفصيلاته ومنطقه، بل

وباسمه تحديداً، وبتاريخه وحوادثه. لكن هذا العالم الخيالي الجديد ليس العالم الواقعي إياه، فجغرافيا لندن وطبوغرافيتها، ليست جغرافيا «لندن ديفو» كما هو معروف، واللاذقية في «الشراع والعاصفة» أو «المصابيح الزرق» لحنا مينه، هي غير اللاذقية التي نعرفها، وبطرسبورغ نهر النيفا غير بطرسبورغ دوستويفسكي ولن يطول الوقت بعد ديفو حتى يخترع وليم فوكنر مقاطعة روائية خيالية هي «يوكانا باتاوافا» ولهذا فباستطاعة كل روائي أن يقدم التحية لدانيال ديفو أول من اكتشف «قارة الحياة اليومية» أي القارة التي سيتجول فيها الروائي بدءاً من اليوم، أوالقارة التي سينطلق منها الروائي لاستكشاف قارة الخيال ويوتوبياه.

بهذا الاكتشاف أعطى ديفو دوراً جديداً للكاتب الروائي في قارة الحياة هذه، ألا وهو الحضور في التاريخ وقت تشكله، ومراقبة تسجيل التاريخ وقد صارعلى شكل حدث يومي، والحدث اليومي وقد صار تاريخاً ومخيلة معاً، ليس التاريخ وأحداثه مجرد معارك وحروب للآلهة والملوك والكرادلة، فللانسان العادي مكانه ودوره في تدوين هذا التاريخ وفي صنعه وروايته. لقد دفع ديفو، ومع البورجوازية الصاعدة، الشعب أيضاً، الشعب الذي هو «بطل» الحياة اليومية إلى مركز الحدث التاريخي، وبعده صارت الرواية حال زمانها، آماله وأوهامه، أشواقه وأوجاعه، الترجمان والشاهد، ، المؤرخ والمشارك الخصم والحكم والمحامي والمحكمة، السيد والخادم، الصناعي والعامل، بدءاً من ديفو صارت الرواية ملحمة الحياة المعاصرة، وكتابها المفتوح، وشكلها أو جنسها الأدبي الذي لن يغلق، وهذا هو معنى تأسيس ديفو للفن الروائي، وهذا هو جوهر اكتشاف ديفو البسيط والمذهل: الرواية ملحمة الحياة اليومية، مثلما هي مغزاها وروحها.

١٠
———
٧

تتأسس «رواية ديفو» على المنطلقات التالية:

١- الانطلاق من الواقع العياني، ولتكن حادثة بحار «مثلاً» كما في روبنسون كروزو، أو حياة بغي ولصة كما في «مول فلاندرز».
٢- تقديم رؤية تخيلية لهذه الواقعة التاريخية، أو هذه الشخصية البشرية
٣- الايهام بواقعية هذه الرؤية التخيلية عن طريق نثر تفاصيل دقيقة، كالتحديد الدقيق للزمن والمكان والعادات والسلوك والصفات الجسدية والنفسية...
٤- الانطلاق من شبكة العلاقات البشرية المدينية الجديدة، في ترابطاتها وشبكة علاقاتها ومنطق وآلية تحركها.
٥- تكثيف روح الواقع في حركته وبعده الفكري، وحتى الميتافيزيقي، وعدم الاكتفاء بالنثريات والتفاصيل في انفصالها وتشتتها الظاهري، بل إدراك وتقديم الوحدة الكلية والجوهر المتشابك خلف مايبدو – جزراً وأفراداً، وقائع وتفاصيل، تلك هي رؤية العالم لدى الروائي، ولدى الفن الروائي عموماً.
٦- تجسيد كل ذلك في شخصيات وطبائع وأحداث محددة، صراحة أو ضمناً في مكان أو زمن أوتاريخ، أو لحظات هي قطرات في بحر الزمن العام المتسرب أبداً.

قد يقال ان هذا توصيف للرواية «الواقعية»، لكننا نعتقد أنه ينطبق على الرواية «الخيالية» واليوتوبيا أيضاً.

١٠

٨

كان دانيال ديفو مثالاً مشخصاً في حياته لروبنسون كروزو الملقى في جزيرة مهجورة، وعليه أن يشق طريقه وسط عباب المدينة الصخاب، فهو ابن تاجر متواضع، وكان عليه أن يعمل بنفسه، مثل أبيه، ليجد لقمة عيشه ويحقق مركزه، ولابأس أن يضيف إلى اسم أبيه «فو» السابقة «دي» ليبدو وكأنه من سلالة النبلاء الذين يطمح هو وأشباهه لوراثة مكانتهم المنهارة، وليست مشكلة أن يتم ذلك بالتزوير والكذب، فهكذا تجري الأمور في هذه المدينة المتكونة، أو هذا الزمن الجديد. عمل ديفو في التجارة بعد أن ترك دراسة اللاهوت، فالتجارة أكثر جدوى، لكنه خسر في تجارته فعمل في الصحافة والصناعة والجاسوسية، وتنقل مابين حزبي المحافظين والأحرار، مع كونه بيورتانياً متشدداً، ثم سجن وشهر به وجرِّس، ولاحقته الديون، وببساطة كان فرداً بروتستانتياً، تاجراً وصناعياً، تقياً ومتحرراً، ورمزاً لعصره، وإن كان في حالته الشخصية والخاصة، مخفقاً، فقد مات هارباً من دائنيه، أوربما في السجن، و لهذا كان معاصره وغريمه الخيالي العظيم الآخر، صاحب «رحلات جلفر» ينظر إليه بتعال واحتقار وينعته بـ «الرجل الذي غاب عني اسمه» أو «ذاك الرجل الذي شهِّر به» كناية عن تواضع منشأ ومهنة ديفو بالنسبة لرجل دين انكليزي محترم، مثل «سويفت»، وعلى كل حال فهذا الفرد الانكليزي، التجريبي، أي الذي يكشف العالم أو يعيد قصة خلقه روائياً، عبر التجربة والصناعة والاختراع و «الخدم»، هو الذي سيخلق شخصية «روبنسون كروزو» «أول فرد عظيم» كما يصفه أحد النقاد الانكليز المعاصرين، إذ يبدو أن ديفو، وبعد أن أضاع رأسماله في التجارة، وسمعته وشرفه في السياسة والصحافة، وجد رأسماله وشرفه الضائعين في كتابة الرواية، ويبدو أن ذلك كان أجدى له وللبشرية.

$\frac{١٠}{٩}$

في قصص الرحالة والبحارة كان العائدون يعودون ليرووا العجائب التي شاهدوها، أما روبنسون كروزو فيعود ليروي مافعل وماصنعه بعد أن زرع وباع واشترى في أمريكا، فقصة حياة روبنسون كروزو تقطع في وسطها، ويثبت المشهد على تحطم السفينة والتجاء روبنسون كروزو إلى جزيرة حيث يبني عالمه الجديد بنفسه، والحقيقة بمساعدة خادمه الذي بقي معه خمسة وعشرين عاماً، بدل أن يكتشف ويجد عالماً قائماً، وباختصار على روبنسون أن يعيد بناء هذا العالم وأن يبني يوتوبياه الخاصة، مثلما كانت تجري آنذاك إعادة بناء العالم الحديث، وبقوة وقيادة الفردية،البورجوازية الأوروبية الصاعدة بأخلاقها البروتستانتية المتقشفة.

أعلن روبنسون أنه يروي قصته «الحقيقية» بعد أن تحطمت سفينته، وفي سبيل صنع الايهام بالواقعية، أو في سبيل أن نصدقه، بنى عالماً مشابهاً لعالمنا الواقعي، فاليوتوبيا لن تكون بعد اليوم، إلا على شكل هذا العالم الواقعي، فقد راكم التفاصيل اليومية من حياته في الجزيرة، بحيث بدت تفاصيل حياة يومية واقعية، وكما هو معروف فتلك من أهم سمات الفن الروائي، وفي هذا بدأ الفن الروائي يختلف عن قصص البطولة الخيالية، قصص الشحاذين والعيارين والشطار والمستجدين «البيكارسك» أو قصص الوعظ الديني وقصص الغرام والأمراء، وببساطة فإن قصة حياة روبنسون كروزو هي قصة رجل عادي ألقت به المقادير في جزيرة مهجورة، كما تلقى هذه المقادير إياها رجلاً آخر في مدينة مزدحمة، وبهذا تكون مول فلاندرز، رواية ديفو الأخرى، وهي رواية عن لصة وبغي في زحام المدينة، وجهاً آخر لروبنسون كروزو ولكن

في «جزيرة المدينة» وبين أحراجها، وفي الحالتين على «الفرد» أن يبني مصيره بنفسه، ولهذا كان طبيعياً أن يكون أسلوب ديفو، أو «روبنسون كروزو» في رواية حكايته خاليا من البلاغة التقليدية وافتعال المواقف والمبارزات والمكائد، إنه أسلوب صحافي، بسيط، لغته هي لغة الحياة اليومية، مثلما مشكلاته وقضاياه هي مشكلات الحياة اليومية وقضاياها، وعلى كل حال فديفو كان يكتب لطبقة جديدة، فكان بدهياً أن يكتب لها بلغتها وعما يعنيها، فأبناء هذه الطبقة قد تلقوا تعليمهم عبر التجربة والخبرة، في الدكان والسوق والمصنع والمكتب، حيث مارسوا حياتهم وعاشوها، وليس في الأديرة أو الجامعات.

وهكذا انحدر النبيل الحالم «دون كيشوت» والمحارب في سبيل العدالة، إلى مجرد تاجر يسعى في سبيل المال، أو هكذا بدأت تتجسد اليوتوبيا في مدينة لندن، ولكن قبل أن نغادر ديفو ،وهذه الطبقة الجديدة الصاعدة، دعونانقرأ مدح فضائلها ونتعرف على شكل الحياة في يوتوبياها، وذلك على لسان والد روبنسون كروزو:

«وكان أبي على جانب عظيم من الحكمة والرصانة فأخذ يقدم لي نصائح فاضلة وينذرني أن أعدل عما عزمت عليه. وفي ذات يوم صباحاً دعاني إلى مخدعه الذي لم يكن يفارقه لمرض في رجليه وأخذ يكلمني بنشاط وحرارة عن هذا الأمر.وسألني هل يوجد عندك سبب غير حب السفر والجولان يحملك على مباينة بيتي وترك وطنك العزيز حيث يمكنك التداخل مع أصحاب التقدم والنجاح في أمور الدنيا بواسطة الاجتهاد والجد وأن تعيش مع ذلك عيشة راحة ولذة. ثم قال ان الذين يتغربون بقصد الربح اما من القوم الذين سدت عليهم أبواب النجاح في بلادهم أو من أصحاب الغنى والثروة العظيمة. فإن هؤلاء يطلبون الارتقاء بواسطة جدهم في طلب الأسباب ويجعلون لأنفسهم شهرة بواسطة

أعمال خارقة العادة. ولكن هذه الأمور هي إما أعلى أو أدنى منك جداً، وأن حالتك هي متوسطة أو هي بالحري في أعلى من الدرجة الدنيا. وأنه قد وجد بالاختبار المستطيل أن هذه الدرجة هي أحسن الحالات في العالم وأكثرها موافقة لراحة الانسان. لأنها غير خاضعة للشقاء والمصاعب والأتعاب والأوجاع التي تلاصق عيشة من كان في الدرجة الدنيا ولا محفوفة بالكبرياء والتنعم والطمع والحسد التي توجد في من هم في الدرجة العليا. ويمكنك أن تتحقق مالهذه الحالة من الراحة من ملاحظة هذا الأمر وهو أن أصحاب هذه الحالة تراهم محسودين من باقي الناس وأن الملوك كثيراً ماتأسفوا من النتائج التعيسة الناجمة من ولادتهم للأمور العظام ورغبوا أن يوضعوا في وسيط طرفين أي بين العظماء والأدنياء حتى أن الحكيم شهد لهذه الحالة بكونها دستوراً عادلاً للغبطة الحقيقية عندما طلب أن يكون لافقيراً ولاغنياً.

ثم قال لي إذا لاحظت الأمور يظهر لك دائماً أن مصائب الحياة يشترك فيها القسم الأعلى والقسم الأدنى من بني البشر. وأما الحالة المتوسطة فإن مصايبها تكون أقل وتقلباتها لاتوازي تقلبات الحالتين الأخريين. أي أن أصحاب الحالة المتوسطة لايكونون عرضة وهدفاً لأمراض الجسد وقلق العقل كما يكون الذي بواسطة سوء الترف والتنعمات والشراهة من الجهة الواحدة أو بواسطة مصاعب العمل وتعذر الاحتياجات وقلة الأكل وخباثة الأطعمة من الجهة الأخرى يجلبون على أنفسهم أمراضاً وعللاً من شأنها أن تنتج بالطبع من معيشتهم. وأن الحالة المتوسطة تكون دائماً مقرونة بجميع أنواع الفضايل والتمتعات. وأن السلامة والسعة هما جاريتان لمن كانت أحوالهم متوسطة. والقناعة والاعتدال والهدوء والصحة والاتحاد وكل أمر محبوب ولذة خالصة هي بركات ترافق الحالة المتوسطة من المعيشة. وأنه بهذا الطريق يسير الناس بسكوت وهدو في العالم ويخرجون منه براحة من

دون أن يرتكبوا بتعب اليد أو قلق الرأس أو يبيعون أنفسهم للعبودية لأجل خبزهم اليومي أو يزعجوها بأمور من شأنها أن تنزع سلامة الضمير وراحة الجسد أو يكدروها بالحسد أوشدة الطمع في طلب أمور عظيمة. ولكنهم لما هم فيه من الراحة يسيرون الهوينا في العالم ويذوقون حلاوة الحياة من دون مرارتها ويشعرون بأنهم سعداء ويتعلمون بالاختبار يوماً فيوماً معرفة ذلك والاشعار به...*

١٠
١٠

لكن هل يمكن الاستسلام لهذا الفرد الظافر الصلف الذي يباهي بفرديته وصناعته وتجارته وخلقه الجديد للعالم؟ وهل يترك العالم نهباً لتفتح وازدهار مخيلته الفردية؟! هذا ماسنراه في الفصل التالي عند غريم ديفو: جوناثان سويفت.

---

* الرواية: ص ٢-٣ الجزء الأول «التحفة البستانية»

رحلات جلفر

الفصل العاشر

رحلات جلفر«*»

١١

١

«أما تقديم قصة من الخيال فهذه جريمة فاضحة، وهو نوع من الكذب الذي يفتح ثغرة في القلب تنفذ من خلالها الأكاذيب».

هذا ماكتبه «دانيال ديفو» ذات يوم، ولكن معاصره وشانئه جوناثان سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) سيرتكب هذه «الجريمة الفاضحة» وسيفتح ثغرة في القلب، ولكن لتنفذ من هذه الثغرة - المخيلة أشد الرؤى، إن لم نقل الحقائق، مرارة وقتامة وهزءاً ويأساً، سيطلق سويفت العنان لمخيلته.

كان دانيال ديفو وجوناثان سويفت متعاصرين، ولكنهما كانا متناقضين في كل شيء تقريباً، سوى في التنقل السياسي بين حزبي المحافظين والأحرار، إلى أن استقر ديفو في الأحرار، وسويفت في المحافظين، أي إلى أن استقر كل منهما في مكانه ومتراسه الطبيعي ضد الآخر.

* نعتمد ترجمة محمد محمد رفاعي لرحلات جلفر، جزءان، سلسلة الألف كتاب ، وقد صدرت ترجمة جديدة بقلم د. محمد فتحي الديريني.

كانت شخصية ديفو الروائية، أو قل رؤيته للحياة ويوتوبياه المشخصة في «روبنسون كروزو» تذهب باتجاه الغرب: «أمريكا» أما شخصية سويفت الفنية، أو قل رؤيته للحياة ويوتوبياه المشخصة في «جلفر» فهي تذهب إلى الشرق، وكان روبنسون كروزو ينظر إلى سكان أمريكا الأصليين كمتوحشين، أما جلفر فكان ينظر للجياد الناطقة في الشرق كرمز للفضيلة والحكمة المفقودتين في أوروبا، وبريطانيا بطبيعة الحال، كان الآخر وارضه بالنسبة لروبنسون كروزو، ومايمثله من بورجوازية أوروبية صاعدة ورأسمالية قيد التكوين، مجالاً للاستعمار والاستعباد والسيطرة والنهب، وكان الآخر وأرضه بالنسبة لجلفر مرآة يرى فيها الأوروبيون عيوبهم ونقائصهم، أو أرضاً للحكمة والسعادة، وربما مكاناً يوتوبياً يعوض الفردوس المفقود في بريطانيا، بحيث تمنى جلفر أن يقضي كل حياته في هذا الشرق القصي عن الغرب الأوروبي، بدل العيش بين «الأقزام الانكليز» أو في حمأة الحياة البريطانية.

كان روبنسون متحمساً بل ومجسداً للبورجوازية الصاعدة ورأسماليتها، أما جلفر فقد كان هاجياً ورافضاً لهذه العملية من أولها إلى آخرها.

أما من الناحية الفنية فقد كان دانيال ديفو يقدم الواقع «كما هو» ويرفعه، روائياً، إلى مستوى المخيلة أوالتخييل، بينما كان جوناثان سويفت يقدم المخيلة، ويجعلنا نبحث في ثناياها وضدها وشبيهها وعلاقاتها وأمثولاتها، عن الواقع، كان ديفو يحلم بالمال، وكان تاجراً وصناعياً وجاسوساً وكاتباً ومرتزقاً، أما سويفت فقد كان، شأن شاعرنا العظيم المتنبي، يحلم بالمنصب «السامي»، ويرفض أن يأخذ أجر كتاباته،فالكتابة عنده للدفاع عن الرأي أو عرضه، وليست وسيلة للارتزاق، ولو أننا أردنا متابعة التناقضات بين الرجلين لاستغرقنا

البحث، لكن المفارقة التي نريد عرضها من وراء عرض هذه التناقضات، أن الرجلين، كانا، وفي تناقضهما، وكل من جهته، ووحدة زمنهما ومجتمعهما، يعبران، وبعمق أصيل، عن عصر واحد متجانس، مختلف، عصر هو في حد ذاته متناقض ومتضاد في طبيعته وتكوينه وآليته وغايته، بل ومآله كما سنرى، إنهما، في تناقضهما الأصلي والتكويني، في تناقض حياتهما ورؤيتهما لعصر واحد، ولعملية تاريخية واحدة، إنما يجسدان مأسماه «بول هازار»: أزمة الضمير الأوروبي، هذا الضمير الذي بدأ يستيقظ منذ النهضة الأوروبية، ويسير في طريق متناقض، طريق الكشف والاستعمار، العقل والسيطرة، توسيع «حدود» الانسان وتصغيره معاً، خلق التكنولوجيا، ثم عبادتها. قتل الله، وعبادة ماهو أقل شأناً من هذا الاله المقتول. استبدال الفردوس الجميل المفقود، بفردوس هو أرضي وبشري مهما بدا جميلاً لبعضهم، أعظم البناء، وأعظم الهدم كذلك، ضخامة المدينة وصغر الفرد فيها، جماعية الانتاج وفردية الملكية، المعقول واللامعقول... الى آخر هذه المتضادات.

لكن لنعد إلى «كتاب» سويفت العظيم «رحلات جلفر ١٧٢٧» الذي هو في حقيقته، وقبل كل شيء، معارضة كتابية لرواية دانيال ديفو التي عرضناها سابقاً: «روبنسون كروزو»

١١
―
٢

كان السلف العظيم لكل خيالي ،المحترم «دون كيشوت» قد خرج أربع خرجات، أو قل ذهب في أربع رحلات صغيرة على ظهر جواده متجولاً في سهل المانشا باحثاً عن العدالة، ومحققاً لها حيثما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ناظراً بعين المحبة لهذا الموجود الطيب: الانسان..

أما الخلف «العظيم» السيد جلفر فقد ذهب في أربع رحلات بحرية ووصل فيها حتى أطراف الشرق الأقصى ليثبت لنا سذاجة حلم جده دون كيشوت، بل وقلة جدواه، فهذا الكائن الذي حارب السلف العظيم في سبيله، حتى طواحين الهواء، وفقد عقله في سبيله، مثلما سيفقده سويفت فيما بعد، لايستحق كل هذا العناء، فهذا الكائن المدعو أيضاً بـ: الانسان، هو كائن شرير، مغرور، منافق يستحق الهجاء والشتيمة، بدل الشفقة عليه والرأفة لحاله، أما إذا كان السلف الساخر العظيم الآخر «رابلييه» قد ضحك من هذا الكائن ومعه، ضحكاً غريزياً، إنسانياً، يضج بالصحة والعافية، بالفرح والغبطة والحياة المنطلقة، فهذا شأنه، وربما سذاجته، ففضيحة الوجود الانساني، فضيحة السفه والحمق والغرور والنفاق، لاتستحق إلا الهجاء والهزء والتقريع، وقد تكفل جوناثان سويفت بذلك، بواسطة مخيلته العملاقة، ورجله البحار العادي: ليمويل جلفر.

١١
―
٣

«كتاب رحلات جلفر» رسالة موجهة للمجتمع البشري كله، وإن كانت هذه الرسالة معنونة في مصدرها والجهة المرسل إليها:بريطانيا القرن الثامن عشر. إنها رسالة تقريع لذاك العصر، وللعصور القادمة، وإن كانت تحتفظ ببعض الاحترام للعصور الماضية السعيدة، أيام الفردوس المفقود، وليس مهما «تصنيف» هذه الرسالة أكانت رواية أم رحلة، أم تخييلاً، أم يوتوبيا، فليس في الأمر مثل هذه الأهمية التي يوليها إياها النقاد الأكاديميون عندما يختلفون على تصنيف هذا الكتاب، فرحلات جلفر مثل أية كتابة عظيمة، هي كتابة أو كتاب عصي

على التصنيف والتحديد، طالما كل تصنيف وتعريف هو حد وإغلاق، فرحلات جلفر كتاب مفتوح مثله مثل الطبيعة والوجود الانساني والفن والمخيلة، ولهذا فسيجد فيه كل جنس أدبي بعضاً منه، مثلما يجد وسيجد فيه كل عصر بعضاً من واقعه ونفسه أيضاً، إنه كتاب الواقع طالما الوجود الانساني يتجسد في وقائع، مثلما هو كتاب المخيلة مابقي للانسان مخيلة، وهو رواية مفتوحة مادام هناك تاريخ، وكتاب رحلة طالما الانسان يرحل في البحر أو في واقعه ومجتمعه، أو في أعماق ذاته.

$\frac{١١}{٤}$

تتكون «رحلة» جلفر، من أربع رحلات الأولى إلى بلاد الأقزام حيث يبدو السيد جلفر الانكليزي عملاقاً، والثانية إلى بلاد العمالقة، حيث يبدو جلفر قزماً، والثالثة إلى بلاد فيها مجتمعات عديدة، أهلها مشوهون، لكنهم مع ذلك مزدهون بعلومهم، وببساطة فهذه الرحلة هي معارضة ساخرة لأطلنتس بيكون الجديدة حيث تسيطر التقنية، أما الرحلة الرابعة فهي إلى بلاد الجياد الناطقة والحكيمة، وكما هو واضح فالرحلات الأربع متكاملة وتعبر عن فكر سويفت ورؤيته للانسان عموماً، وإن كانت هذه الرؤية مستخرجة أو مؤسسة على الحياة البريطانية، فسويفت ينطلق من الأقزام في الرحلة الأولى، ليصل إلى الحكمة والفضيلة في الرابعة، ينطلق في الحقيقة من «الحيوانية» التي يراها في بريطانيا القرن الثامن عشر، ليصل الفضيلة والعقل والحكمة كما يفهمها، مروراً على ماكان يراه على أنه أوهام وأكاذيب التقدم والعلم والأخلاق البريطانية والانسانية عموماً.

١١
―
٥

كان سويفت معارضاً لزمانه، زمن روبنسون كروزو، على طول الخط، وخاصة للنزعة الفردية والعلمية البورجوازية الصاعدة، والتي كانت قد بدأت تنتشر وتسود في بريطانيا والقارة الأوروبية التي أخذت بيدها منذ ذلك الوقت مهمة توحيد العالم والأخذ بزمامه والسيطرة عليه. وفي الوقت الذي كان فيه الأدباء والمفكرون والساسة يمجدون هذه الحركة الجديدة بل ويكونونها، معتمدين على الاكتشافات البحرية، والعلوم التقنية والروح الفردية والفلسفة والتقنية، أي في الوقت الذي كانوا يبنون فيه «اطلنتس الجديدة» كما تصورها بيكون، كان سويفت أقرب إلى النظرة الدينية التقليدية المحافظة التي ترفض كل ذلك، وترفض خصوصاً بذور ونتائج فكرة التقدم التي كانت قد بدأت تتكون آنذاك، فإذا كان جوهر فكرة التقدم أن سعادة الانسان وفردوسه ممكنان، وهما أمام الانسان، لاخلفه، فإن جوهر الفكرة الدينية، والتي يتبعها سويفت، ويدافع عنها، هو أن الفردوس كان في الماضي، لكنه فقد نتيجة خطيئة الانسان، وبالتالي فالانسان مجرد كائن خاطئ، وكلما امتد به الوجود في هذه الأرض، أو كلما طال الزمن ازداد الانسان تردياً في حمأة الخطيئة أو الوجود. و «التقدم» بالتالي هو تقهقر وانحطاط وإمحاء للشرف والبطولة، وجلفر كان يستطيع، ولاريب، إعطاء أمثلة كثيرة من الحياة في عصره، كأمثلة لانحطاط القيم، ولم يبخل بهذه الأمثلة، وإن كان قد أوردها بأمثولة الأقزام أوالعمالقة، أو على لسان ملوك البلاد التي زارها، حيث يتعجب هؤلاء الملوك من دناءة وحقارة هذا الانسان الذي يشرِّح جلفر قوانينه ونظمه وعلاقاته، أي مجمل حياته.

١١

٦

كان هوبز يرى كما أسلفنا أن هذا الوجود هو «حرب الجميع ضد الجميع» وكان يحلم بتنظيم هذه الحرب بواسطة «شرطي» عملاق مدجج بالأسلحة بحيث يصبح أقوى من كل المقاتلين، هذا الشرطي هو «اللواثيان»، أو الدولة، التي خلقها الانسان، لكنها مالبثت أن صارت أقوى منه، ،حكمته، مثلها مثل التكنولوجيا، أما سويفت فقد آمن بنظرية هوبز فيما يبدو، لكنه اختلف معه في حكم «اللواثيان» فالشر والحرب، وذأبنة الانسان على الانسان قدر أصيل، ووجود واقع، وصفة ملازمة لهذا الانسان، إنها خطيئة لايمكن التكفير عنها، وخطأ لايمكن إصلاحه، والانسان مع الزمن يزداد تمادياً وولوغاً في مستنقع وجوده الآسن، ولهذا فاللعبة واللاعبون، الحرب والمتحاربون، ومجمل هؤلاء«الذئاب» لايستحقون إلا الاحتقار والترفع، ولامكان لمشاعر الشفقة والرأفة، فالاحتقار، والاحتقار وحده، هو مايليق بـ: الانسان، ولهذا كانت غاية سويفت الشخصية من كتاباته ومنها «رحلات جلفر» هي كما كتب لأحد أصدقائه.

«إن الغاية التي أتوخاها في كل أعمالي هي أن أكدر خاطر الدنيا، وأقلقها بدلاً من أن أسليها وأمتعها.. إنني أكره وأحتقر ذلك الحيوان الذي يدعى إنساناً مع أنني من قلبي أحب «جون» و «بطرس» و «توماس» ومن إليهم... لدي مادة تكفي لمقالة تثبت زيف ذلك التعريف الذي يقول: الانسان حيوان عاقل، وتبين أنه ليس سوى حيوان قادر على التفكير... على هذه القاعدة الراسخة من كراهية البشر أقيم بناء رحلاتي كله»*

---

* (عن تقديم د. محمد رجا الديريني لرحلات جلفر)

رهيب هذا الأسقف الانكليزي.. أليس كذلك؟ وهل من حاجة للتعليق أو الشرح؟! وعلى كل حال فقد عاقب سويفت، كاتب انكليزي من أيام مجد الامبراطورية الانكليزية، على كتابته الفضائحية ورد له الصاع صاعين، والشتيمة بمثلها، إذ كتب الروائي «ثاكري ١٨١١- ١٨٦٣» واصفاً سويفت بألفاظ منها «فاجر، مجنون، وحش مريع، ساقط، هائج، بذيء.. الخ» وكما ترون هي صفات لو قرأها سويفت لأكدت له سوء ظنه بالبشر عموماً، وبالانكليز خصوصاً.

$\frac{١١}{٧}$

قدم سويفت أحجاماً ونسباً وأشكالاً «غير طبيعية» لكائناته التي زارها جلفر في جزرها، فثمة أقزام وعمالقة، وأشباه قرود، وجياد ناطقة ونبيلة هي رمز للفضيلة، ولما يفتقده البشر ويصبو إليه سويفت، مع إخلاله بالنسب والأشكال والحجوم، حافظ في البلاد التي زارها على شبكة العلاقات البشرية، ولهذا نقول إنه قدم متخيلاً جديداً يقوم على تقديم الوجود الانساني، وإن كان ذلك عبر أشكال وعوالم تبدو غير بشرية، فالحقيقة أن سويفت لجأ في تخييله إلى مايلجأ إليه اليوم رسامو الكاريكاتير حين يصغّرون أو يكبرون النسب بين الأعضاء والأشخاص البشرية، وهذا التصغير أو التكبير والاخلال بالنسب يخلق تضاداً، بحيث يظهر التناقض في الصورة، والتناقض هذا، سواء بين الحقيقة والصورة، أو بين الكبير والصغير، قياساً إلى الحجم الطبيعي، يؤدي إلى الغرابة والضحك، وهذا التناقض «الكاريكاتوري» هو مايجعل القراء يضحكون لدى قراءة رحلات جلفر، أو كتاباته الأخرى، في حين كان سويفت يريد لقرائه أن يبكوا، أو على الأقل أن يخجلوا من هذه الفضيحة، فالفضيحة ليست في خيالات سويفت، بل هي في الواقع الذي

«أنشـأ» هذه الخيالات، وبالفعل فإن المتمعن في قراءة رحلات جلفر، أو بعضاً من كتاباته الأخرى، كما في «اقتراح لتسمين الأطفال» يخاف ويرتعد، من هول ماوصل إليه واقع الانسان الذي صار خيالاً، ولكنه خيال ذو وجه ثان، وجه واقعي وأليم، وهنا يتذكر القارئ قول المعري:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البرية أن يبكوا

١١
―
٨

لم يعد الانسان في أحسن تقويم، ولم يعد عالمه أحسن العوالم، ولم تعد أرضه مركز الكون، وحقيقة الوجود الانساني هي هامشية وحروب ودناءة ونفاق ورغبة في السيطرة وذئبية، وربما كان الوجود البشري كله مأزقاً، وربما كان هذا ماأراده، أو ماراه سويفت خلف رواية الصعود البورجوازي الكاذب في «روبنسون كروزو» والتي كان دانيال ديفو يسلي ويوهم قراءه بها، ولهذا فلربما كان الأجدى من خداع الناس وتسليتهم بقصص النجاح وجمع الثروة، فضحهم وإعادتهم إلى حقيقتهم، فهم مجرد أقزام وقرود، أو عمالقة حمقى، عبيد أوهامهم وتجارتهم وصناعتهم وعلومهم القاصرة، أما إذا أراد الانسان بديلاً لهذا العالم، أو يوتوبيا أخرى بديلة لأطلنتس بيكون الجديدة، فعليه أن يعود إلى الفردوس المفقود، إلى الماضي، فخلاص الانسان في ماضيه وجنته في بدائيته خارج هذه المدينة، خارج هذه «العلوم البيكونية» وهكذا ينفتح الطريق لجان جاك روسو كما سنرى فيما بعد.

١١ / ٩

هكذا إذن، وبينما «روبنسون كروزو» يغني ملحمة انتصاره وفرديته وثروته وخلقه للعالم على طريقته، وبينما أوروبا كلها بمفكريها وساستها وقباطنتها ومستعمريها وصناعييها وعلمائها وتجارها ومبشريها تغني في حفل ميلاد وتعميد «العالم الجديد» أتى القس جوناثان سويفت ليلعن هذا الوليد، بدل أن يباركه، لينشد في الحفل هجاءً مقذعاً، بدل أن يمدح أو يهنئ، أو يسكت على الأقل.

خيبة في زمن الولادة، وبكاء في العرس، وفضيحة بين «محترمين» وبصقة في وجوه علية القوم، وتعرية من الأوسمة والنياشين وبراءات الاختراع والألقاب.. هذا هو سويفت. فهل من عجب أن يبدو سويفت في عيون بعضهم، أي في عيون هؤلاء القوم: وقحاً، بذيئاً، وبشعاً، لاسيما وهو يفضحهم ويفاجئهم لحظة البدء بالجرم المشهود: لحظة البدء بالاستيلاء على العالم كله، وسرقته؟!

١١ / ١٠

في لحظة تاريخية واحدة ولد عملان، أو قل رؤيتان متناقضتان لواقعهما، وللعالم، روبنسون كروزو المزدهي بفرديته وخلقه للعالم على هواه، وجلفر باحتقاره لهذا العالم، ولهذا الانسان «الكروزي» الذي كان نجاحه ضرباً من الاخفاق، وقل الفضيحة حسب رأي سويفت، فما السبب، وأين يكمن سبب أو تفسير هذه المفارقة؟! هل نكتفي بالقول مع ماركس أن الوقائع الواحدة تنعكس في المخيلة الانسانية بطرق مختلفة، أم نبحث عن سبب آخر؟

ربما كان من السهل، ومن المدرسي جداً، تفسير هذه المفارقة بتناقضات الحياة الأوروبية والبريطانية في مستهل القرن الثامن عشر،

أي بتناقضات ديناميكية رأسمالية كانت ماتزال في طور الولادة آنذاك، ولهذا يمكن القول أن من الطبيعي أن تولد أو تنتج هذه الديناميكية المتناقضة (التي تهدم وتبني، تقتل وتحيي، تستكشف وتغزو) رؤى متناقضة تناقض هذه الديناميكية إياها، وبالحدة نفسها، وأكثر، لأن الخيال الفردي، والألم البشري يتدخل هنا، والأمر لايبقى مجرد عمليات منطقية أو اقتصادية أو تاريخية مجردة، فالتناقضات الواقعية ستبدو على شكل تناقضات في الذهن والمخيلة الاجتماعيتين، قد يكون هذا صحيحاً، وأعتقد أنه صحيح إلى حد بعيد، لكن المسألة لاتقف هنا فقط، فالتفسير بتناقض الديناميكية الرأسمالية لحظة التكون لايكفي، وإلا لنسينا رحلات جلفر. مع تجاوز مرحلة كتابتها.

يبدو أن هناك نفسية وشخصية فردية تعمل على أرضية الظروف الاجتماعية وفيها، وهي التي تنتج هذه الرؤية أو تلك، عند هذا المفكر أو ذاك، وتجعل لحلمه هذا الشكل أو ذاك، وليوتوبياه هذا التصميم أو غيره، وربما لروايته هذه التقنية أوتلك، وفي حالة سويفت، فالمعروف أنه فقد أباه طفلاً، وكان مخفقاً في دراسته، وعمل سكرتيراً وأعمالاً متواضعة أخرى، بينما هو يحس بأعماق ذاته بأهميته، وطمح طوال حياته لمنصب أسقف، ولكنه لم يحصل عليه، ويبدو أن كل ذلك أثر في نفسيته، خصوصاً وهو يرى تناقضات وصراع الحياة الانكليزية، وصعود طبقة جديدة تدوس كل القيم والأخلاق والمقدسات بانية على أنقاض ذلك ثروتها وصناعتها وتجارتها واستعمارها، وللقارئ أن يتخيل أثر ذلك في نفس حساسة وذات تركيب أخلاقي، طامحة للعدالة والحرية، ألم يوص جوناثان سويفت بأن يكتب على قبره:

«هنا يرقد جسد جوناثان سويفت دكتور في اللاهوت، ورئيس هذه الكاتدرائية حيث لم يعد الغضب والاستنكار الشديد يمزق قلبه. حاول أيها المسافر الذي سلبته الدنيا عقله، أن تحذو حذو هذا الانسان الذي بذل قصارى جهده للدفاع عن حرية البشر».

لاريب أن سويفت أسيء فهمه مرتين: مرة عندما ضحك الناس من كتاباته، وكان يريدهم أن يبكوا، والثانية عندما اعتبروه كارهاً لهم عندما قرعهم، بينما كان هدفه إيقاظهم من غفلتهم، أو إعادة عقلهم إليهم بعد أن سلبهم إياه غرور الحياة الدنيا.

$\frac{11}{11}$

لاجدوى من كل النصائح والمواعظ، ولاجدوى من كل هذا الغضب، وسدى تذهب هذه التقريعات والشتائم، فالمستمعون قد «سلبتهم الدنيا عقلهم» فالتعب غير المجدي هو نهاية ونتيجة كل هذا الدفاع عن حرية البشر، *ولهذا فالأفضل أن تترك عقلك يسلك مع مسلوبي العقل هؤلاء،* هذا مافعله سويفت، وسواء أكان عمله واعياً أو غير واع، مقصوداً أو نتيجة «عطل فني» في جهازه العصبي، فقد دخل دنيا هؤلاء الأقزام، العمالقة الحمقى، القرود، ولامفر من ذلك، مادام الزمان هو زمان ذئب هوبز وحربه، رياضيات ديكارت وعلمه المدهش، فردية روبنسون كروزو، أطلنتس بيكون الجديدة... الخ... ولهذا كتب لأحد أصدقائه:

«إنني أكره هذا العالم، فقد أصبحت لاأصلح له أبداً» ثم صار يقرأ في يوم عيد ميلاده سفراً من الكتاب المقدس وفيه يلعن «أيوب» يوم مولده، وعندما لم يجده هذا الطقس الاحتفالي، كما لم يجده لعن «الوليد العالمي الجديد» سابقاً، قرر أن ينهي طقوسه وحفلاته ولعناته، فأنهى رسالته، وسافر إلى يوتوبياه، إذ دخل في بوابة الجنون الواسعة والمريحة، وهكذا قضى هذا «الحكيم» الساخط السنوات الأخيرة من حياته مجنوناً، بعد أن كان قد أوصى بقسم من تركته لرعاية مستشفى المجانين، وربما كانت هذه نهاية لاتقل عبثية عن نهاية غريمه دانيال ديفو، الذي مات سجيناً أو هارباً من دائنيه، فهل كان جنون سويفت تطابقاًمنه مع عالم كان يراه سليب العقل، أم هو مجرد خلل عصبي ونفسي؟! نترك

مناقشة ذلك للأطباء والمحللين، ونتابع قصة ماأدى بسويفت إلى الجنون، كما روت هذه القصة الرواية والمخيلة واليوتوبيا - البورجوازية والتي باتت «واقعية» متحققة وعالمية، نتابع الرواية لأن التاريخ تابع روايته وتخييله، ولم يتوقف عند تاجر سُجن، أو قسيس جن، قضيا عمرهما في صراع عبثي بينهما، وعلى كل حال، فقد كانت رؤية القس سويفت آخر رؤية دينية ماضوية في القرن الثامن عشر، وبعدها ستنهار الرؤى الدينية بيوتوبياها المفقودة وتتقدم فلسفة التنوير والثورة على إيقاع تقدم روبنسون كروزو و«أطلنتس بيكون».

١١
―
١٢

ولكن قبل أن نترك «جوناثان سويفت» ورحالته «جلفر» دعونا نقرأ شيئاً من أسلوبه في فضح الحياة والمجتمع الانكليزي، هذا «الأسلوب الفضائحي» الذي استحق نقمة فقهاء الامبراطورية البريطانية،، والمقطع المختار، هو حديث جلفر لملك الجياد الناطقة «الرحلة الرابعة» عن الحكومة والنظام» في بلاد» جلفر»:

«وكنت قد حدثت سيدي في مناسبات سابقة عن طبيعة «الحكومة» بصفة عامة ، وعن دستورنا الممتاز بصفة خاصة ، مناط إعْجاب العالم كله وحسده . ولكنني لما أشرت في هذا المقام عرضاً إلى «الوزراء» أمرني بعد مدة أن أخبره أي صنف من «الياهو» عنيت بذلك الاسم .

فأخبرته أن الوزير الأول ، أو رئيس الوزراء في الدولة ، الذي أزمع وصفه هو مخلوق مبرأ تماماً من الفرح والحزن ، والحب والكره ، والشفقة والغضب ، أو على الأقل لايستعمل عاطفة ما سوى الرغبة العارمة في الثراء ، والسلطة ، والألقاب ، وإنه يستخدم ألفاظه في كل شيء ، إلا الدلالة على مافي نفسه ، وانه لايقول «الصدق» مرة إلا بقصد أن تأخذه على أنه «كذب» ، ولا يقول «الكذب» إلا بنية أن تأخذه على أنه «صدق» وأن من

يذكرهم بالشر من وراء ظهورهم هم أوثق الناس أملاً في الرقي ، ومتى شرع في امتداحك أمام الآخرين أو لوجهك فأنت ضائع منذ ذلك اليوم ، وأن شر آية تتلقاها منه هي «الوعد» لاسيما إذا أكده بيمين ، فعند ذلك يتراجع الرجل العاقل ، ويخلي نفسه من كل أمل .

وهناك ثلاث طرق يمكن أن يرتفع بها الرجل إلى منصب رئيس للوزراء:

أما الطريقة الأولى ، فهي معرفته كيف يتصرف بحكمة في زوجه أو ابنه أو اخته ، وأما الثانية ، فهي خيانة سلفه أو الوقيعة به ، وأما الثالثة ، فهي «فرط الحماسة» في الاجتماعات العامة ضد مفاسد البلاط . ولكن الأمير العاقل يختار لهذا المنصب من يسلكون الطريقة الأخيرة ، إذ أن أمثال هؤلاء المتحمسين يثبتون دائماً أنهم أذل الناس ، وأطوعهم لإرادة مولاهم وأهوائه - وأن هؤلاءالوزراء الذي يتصرفون في جميع المناصب يحتفظون بسلطانهم برشوة غالبية الأعيان في مجلس الشيوخ أو في المجلس الأعلى ، وأخيراً يؤمنون أنفسهم من الحساب بعد الخروج بحيلة سموها «مرسوم الابراء» (وقد شرحت معناه لسيدي) ويعتزلون الحياة العامة محملين بما غنموه من الأمة .

وقصر رئيس الوزراء مدرسة لتدريب آخرين على صناعته . فالغلمان والخدم والحجاب يصبحون باقتدائهم بمولاهم وزراء في أقاليمهم المختلفة ، ويتعلمون كيف يتفوقون في العناصر الأساسية الثلاثة : الوقاحة ، والكذب ، والرشوة . ومن ثم يصبح لهم بلاط صغير يقيمه لهم أشخاص من سراة القوم ، وربما عبروا بالمهارة والصفاقة درجات كثيرة إلى أن يصبحوا خلفاء لسيدهم .وهو دائماً مطية فتاة فاسدة ، أو تابع حظيّ ، هما الممران اللذان تصل من خلالهما كل نعمة ، والجديران بأن يلقبا ، «في آخر المطاف» حاكمي المملكة .*

---

* نقلاً عن: رحلات جلفر. ترجمة الرفاعي.

كانديد وفولتير

والقرن الفاصل

الفصل الحادي عشر

كانديد وفولتير والقرن الفاصل

١٢
―
١

يوصف القرن الثامن عشر أحياناً بأنه «عصر فولتير» (١٦٩٤ – ١٧٧٨) فقد كان فولتير يمثل في أفكاره وحياته وفلسفته هذا العصر، مثلما كان هذا العصر مسرح حياة فولتير ومهاد آرائه، فالقرن الثامن عشر يمتاز بتحالف ظافر بين مدرستين فلسفيتين هامتين هما: الفلسفة التجريبية الانكليزية، والتي يمكن اعتبار فرانسيس بيكون من أوائل من أرسى دعائمها، لتبلغ نضجها في لوك وهيوم فيما بعد. وأما المدرسة الفلسفية الثانية فهي فلسفة التنوير الفرنسية، والتي يمثل فولتير وروسو وديدرو وباقي محرري «الموسوعة» أعلامها، ويمكن أن يضاف إلى سمات هذا القرن ظهور الفلسفة والأدب الألمانيين ممثلين بحركة العاصفة والاندفاع، وشخصيتي غوته وشيلر، وفلسفة كانط، الذي قدم أدق تعريف لماهية التنوير وفلسفته. *

لكن القرن الثامن عشر لم يكن قرن التنوير والتجريب وحركة العاصفة والاندفاع الرومنتيكية الألمانية فقط، بل كان كذلك عصرالثورة الصناعية والثورة الفرنسية، وهذا هو محتوى ومؤدى فلسفة التجريب الانكليزية، مثلما كانت العلمانية، ومهاجمة سلطة الدين والكنيسة خصوصاً محتوى ومؤدى فلسفة التنوير الفرنسية.

---

* راجع: ماهو عصر التنوير، ايمانويل كانط، ترجمة: يوسف الصديق. مجلة الكرمل، العدد ١٣.

فلسفة التنوير ونزعتها التحررية والعلمية والعلمانية، والفلسفة التجريبية الانكليزية ومؤداها الصناعي والتقني، هما ماغير وجه العالم ابتداءً من القرن الثامن عشر، فنحن مانزال نعيش على الأفكار وعلى المخطط الذي وضعت أسسه في هذا القرن للحياة الأوروبية بل والبشرية التي ماتزال مستمرة حتى اليوم، ونحن نودع القرن العشرين، ونتهيأ للدخول إلى القرن الحادي والعشرين.

١٢
―
٢

ليس بالامكان فهم العالم المعاصر، إذن، دون فهم ماحدث في القرن الثامن عشر، فالثقافة ونمط الحياة والمجتمع وأنظمة الحكم ماتزال تنتمي في أسسها لهذا القرن، والثورتان العظيمتان فيه، وهما ثورة التنوير وثورة الصناعة ماتزالان أساس الحياة المعاصرة والعالم كله بعد القرن الثامن عشر هو غيره بعد ذلك، مثلما العالم بعد عصر الصناعة هو غيره قبلها، ومثلما العالم بعد عصر أفكار الحرية والديمقراطية، وبالمقدار والشكل اللذين تحققتا به، هو غيره قبلهما، ولهذا فسنتحدث بإيجاز عن هاتين الثورتين، لأنهما «عصر فولتير» أي أنهما «فكر فولتير»، مثلكا هما المهاد الذي مازالت تنبت فيه وعليه المخيلة الأوروبية، بل والعالمية، سواءعلى شكل روايات، أو أنظمة وفلسفات، أو علوم، أويوتوبيات، فقبل القرن الثامن عشر، مثلاً، كانت اليوتوبيات، وهي مايعنينا في هذا البحث، مجرد تخييلات وأحلام يقظة، إما عن الماضي «الفردوس المفقود» أو أنها أحلام يقظة تحيل إلى «لامكان» أما الرواية فكانت فناً مايزال يبحث عن مشروعيته، لكن بعد القرن الثامن عشر وفيه، أصبحت اليوتوبيا مشروعاً عالمياً قيد الانجاز بواسطة العلم، وحتى التخييل بدأ يقدم اليوتوبيا كمكان موجود مكان ممكن ومعقول، على سطح الأرض، كما سنرى في يوتوبيا «كانديد - ١٧٥٩» لفولتير، فاليوتوبيا موجودة

على الأرض، وإن كـانت أوروبا مـتـخلفـة عنهـا، وبالنسبـة للرواية فـقـد اكتسبت شرعيتـها وأهميتـها في هذا القرن حتى أن مفكراً مثل ديدرو مدحها. كذلك كانت العقلانية قبل القرن الثامن عشر مجرد نزعة فلسفية فكرية وتجريدية، لاتلامس الواقع والتـجـربة وعـالم الحـواس، فـصـارت بدءأمن هذا القرن نمطاً للتـفكير في المجـتمع والعالم، ومنهجـاً للسلوك والفكر، أما العلوم والتقنية والرياضيات فقد كانا قبل هذا القرن مجرد دعوات ومحاكمات ذهنية وتخييلات، كما في «أطلنتس الجـديدة» لبيكون، وأحياناً اكتشـافات واختراعات متفرقة ومتواضعة تقوم على ملاحقة البيانات وإجراء تجارب محدودة، أما بعد القرن الثامن عشر، أو ابتداء منه، فقد أصبحت الرياضيات مستخدمة في العلوم، بل وأصبحت منهجاً في القيـاس ورمزاً للكون وأصـبـحت العلوم والتقنية وسيلة الانسـان في بناء نمط حياة جديد كلياً على البشرية، أصبحت وسيلة في بناء حياة الانسان و «السيطرة» على الطبيعة وتحقيق اليوتوبيا، بدءاً من هذا القرن صارت أوروبا تعني: التقنية.

كان التسامح مجرد دعوة أخلاقية وفكرية لمفكرين أنهكهم الصراع الديني والطائفي، كما في رسـالة لوك «عن التسـامح – ١٦٨٩» فـأصبح التسـامح بعد هـذا القرن دعوة عـالمية وإنسـانية، وإن احتفظت بها أوروبا لنفسـهـا، وبدءاً من هذا القـرن تحـولـت الحـروب الأوروبيـة الـداخليـة من حـروب وصـراعـات دينيـة بين الكاثوليك والبـروتسـتـانت، إلى حـروب وصـرعات قومية – اقتصـادية– استعمارية. كذلك كانت الفردية مجرد نزعة فلسفية، فصـارت نمطاً للتفكير والسلوك، صـارت واقعاً ومكتسباً وحقـوقـاً للانسـان وعـزلة للفـرد، بالاجـمـال فـقـد كانت اطلنتس بيكون الجديدة، تلك المدينة التقنية الصناعية تخييلاً يوتوبيا، قد بدأت تصبح ابتداء من القرن الثامن عشر واقعاً حقيقياً، مما دعا بعضـهم مثل «جان جـاك روسـو» للسـأم -المبكر- منهـا والدعـوة لمغـادرتهـا والعـودة إلى أحضـان الأم – الطبيعـة. وعلى كل حـال فـقـد تـحـقق بعد القرن الثـامن

عشر، ليس ماكان بيكون قد تخيله في يوتوبياه فقط، بل تحقق أكثر من ذلك بكثير، بحيث تبدو أطلنتس الجديدة اليوم مجرد خيال قاصر أو ساذج.

خلاصة القول أن البشرية بدأت تنتقل انطلاقاً من هذا القرن من الرؤية الدينية للعالم وطريقتها في العيش، إلى الرؤية الدنيوية ورؤيتها للحياة، وأن البشر أقلعوا عن النظر إلى الوراء، إلى الفردوس المفقود، وبدأوا ينظرون إلى الأمام حيث يمكن تشييد الفردوس في هذا العالم، وعلى هذه الأرض، فكان لابد إذن من أن تنتقل الفلسفة كذلك من قضاياها واهتمامها الميتافيزيقية واللاهوتية السابقة، إلى أرض العلم والواقع وموضوعاتهما، وكان لابد للسياسة من أن تنتقل من حق الملوك المقدس، إلى حق الشعوب وكان طبيعياً أن يتوج هذا العصر بقيام الثورة البورجوازية الفرنسية (١٧٨٩) ليعلن ذلك انتهاء «العهد القديم» رسمياً، وليبدأ تاريخ جديد لأوروبا والعالم.

١٢

٣

لقد حصل أعمق تحول في حياة البشر المعاشية والفكرية منذ انتقل الانسان من «حياة» «الرعي» إلى حياة «الزراعة»، فبدءاً من القرن الثامن عشر غادر الانسان أمه القرية وأباه الكاهن، وتوجه إلى المدينة - المصنع، حيث بدأت الصناعة الكبيرة مطلقة الانتاج الكبير والكثير، وموزعة إياه على العالم كله بواسطة قوة البخار المستغلة حديثاً في السفن التجارية والسكك الحديدية، والمحرك الانفجاري فيما بعد، وذلك ماوحّد العالم على إيقاع خطى المكتشفين والمبشرين والتجار والجنود الذين أوصلوا منتجات أوروبا المادية والفكرية إلى الأسواق القريبة والبعيدة، إلى أمريكا وروسيا والصين والهند وأفريقيا والشرق الأوسط، وبدءاً من القرن الثامن عشر صار العمل اليدوي عملاً آلياً وممكناً،

والورشة الصغيرة صارت معملاً ضخماً، وبدل الأب - الكاهن في المداواة والاعتراف، سيبرز دور الطبيب والمحلل النفسي، مثلما برز دور المهندس والاداري، وبدل النبيل تقدم السيد البورجوازي ورجل الأعمال، وبدل الفلاح/ القن، جاء العامل الصناعي «الحر» لقد تحول كل شيء، وفي خلال عملية التحول العظيمة هذه تحول الناس وتغيرت أفكارهم ونظرتهم إلى العالم، فأخيراً أدرك الانسان أن هذا العالم ليس معبراً، وليس دار اختبار، وأن ليس للانسان إلا ماسعى في هذه الحياة التي لايوجد غيرها، قبلها أو بعدها.

$\frac{١٢}{٤}$

كان فلاسفة التجريب والتنوير، الانكليز والفرنسيون يهندسون هذا العالم. وكانت «العاصفة والاندفاع» الألمانية تعطيه روحه المندفعة، بل ويتخيلون أحلامه، وكان رجال الصناعة والتجريب العلمي والتمرد على الكنيسة والاستكشاف الجغرافي وعلماء الاستشراق والانتروبولوجيا والرحالة والمخترعون، يصنعون عالماً خيالياً - واقعياً، في وقت واحد، فالعالم كله صار مسرحاً للمخيلة الأوروبية وصناعتها وسفنها، وللعقل الأوروبي وتحليلاته وتركيباته وللفكر الأوروبي ومؤسساته، بحيث بدأ العالم كله يصبح أوروبياً في حقيقته، وكان المفكرون والفلاسفة، على دأبهم منذ وجدوا، فهذه صناعتهم، يراقبون هذا العالم - الواقع مباركين، شأن «فولتير» الذي اعتبر أن مهمته تقوم في إطلاق آخر السهام على الكنيسة الجريحة واليسوعيين الملاعين، وتحقيق الحرية النهائية للبشر على هذه الأرض، أو لاعنين شأن «روسو» الذي رأى أن مهمته تقوم في إعادة الانسان إلى أمه الحنون - الطبيعة، أو مؤدلجين لهذا «التقدم» الذي يتقدم وينمو شأن كوندورسيه المقتول، ضحية الثورة الفرنسية إياها، لكن بقي الجميع متفقين على رفض الكنيسة، وآبائها وزمنها

وعقليتها، وعلى دعوة العقل للاضطلاع بمسؤولياته في العيش أو في «العقد الاجتماعي» وليس اللاهوتي بين البشر، في حياتهم الحاضرة، ويوتوبياهم القادمة، وتلك سمات فلسفة التنوير، أي سمات فولتير وعصره، فماذا عن فولتير، وأية يوتوبيا بديلة جادت بها مخيلته للبشرية؟

١٢
―――
٥

كان «سويفت» يحب البشر والبشرية إلى درجة الكره، ويأسف لسفالات الانسان إلى حد الاحتقار، بل ويرى الشر والخطيئة مجسدين في هذا الحيوان المدعو إنساناً، والذي هو في حقيقته حيوان غير عاقل، وإن كان يستطيع التفكير أحياناً، مع العلم أن تفكيره قد لايكون باتجاه الخير دائماً، وربما كان تفكيره متجهاً للاثم والشرور في غالب الأحيان، أما فولتير، الساخر الآخر، والمتأثر بالفكر التجريبي الانكليزي عموماً، وبرحلات جلفر، على مايقول بعض النقاد، فلم يغامر بمثل هذه الرؤية التجريدية المتطرفة، وربما الدينية، وهذا سبب آخر كافٍ لرفضها في رأي فولتير المعادي للدين شأن غالبية فلاسفة التنوير، لكنه رأى الشر عبر تجسيداته الأرضية، وليس عبر «الخطيئة الأصلية» فالشر مجسد في المجتمع القائم وفي مؤسساته، وخصوصاً في «الكنيسة» التي شن ضدها مع زملائه التنويريين حرباً لاهوادة فيها، وبادلهم رجال الكنيسة السهام في هذه الحروب الضروس، إلى درجة منع الموسوعة من الصدور، أماتهمة «التكفير» لكل تفكير حر فقد كانت لدى الكنيسة تقليداً درجت عليه منذ استيلائها على «السلطة الزمنية». فالخطيئة إذن ليست أصلية، إنها الكنيسة ذاتها، وبالامكان الاستغناء عنها.

لذلك لم يكن فولتير متحمساً لهذا العالم التجاري الصاعد متصارعاً، وباختصار، لم يكن يرى أن هذا العالم «هو أفضل العوالم الممكنة» كما رأى سلفه لايبنتنر ١٦٤٦ - ١٧١٦ فلقد كانت نظرة فولتير

الذي أقام فترة لابأس بها في بريطانيا، هرباً من «مشاغباته» في فرنسا، والمتأثر بلوك، أكثر واقعية وعقلانية و«تجريبية» فيما يبدو، إذ رأى أن هذا العالم ليس شراً كله، وليس خيراً كله، فالعالم جيد أصلاً، أضف إلى ذلك أن العالم هو مانصنعه بأيدينا ومخيلتنا، وكيف نصنعه، لكن المؤسسات التي صنعناها، وخاصة الكنيسة والمؤسسات الأخرى، قد أفسدتاه، ولهذا يجب إصلاحه، وكما يقول «كانديد»: «لابد من أن يكون الناس قد أفسدوا الطبيعة قليلاً، وذلك لأنهم لم يولدوا ذئاباً، فصاروا ذئاباً، ولم يعطهم الرب مدافع من عيار أربع وعشرين، ولم يعطهم الرب حراباً، فصنعوا مدافع وحراباً ليبيد بعضهم بعضاً» * .

بالامكان إذن إصلاح هذا العالم طالما أن أخطاءه من صنع أيدينا وبالامكان بناء يوتوبيا معقولة للعيش، فهوبز صاحب نظرية «الانسان ذئب الانسان» مبالغ قليلاً مع أنه عقلاني انكليزي، مثله مثل الألماني لايبنتز صاحب نظرية أفضل العوالم، وعلينا إذن أن نخضع أفكار هذين الفيلسوفين للتجربة الحياتية والعيانية، وليس للنقاش النظري والماحكات الفلسفية الميتافيزيقية عن الشر وأصله، وعن الخطيئة الأولى وتكفيرها. علينا أن نختبر الفكرة، أليس هذا هو المنهج العلمي التجريبي للقرن الثامن عشر، عموماً؟ أليست هذه هي «كانديد»؟ التي كان موضوعها وضع فكرة فلسفية قيد الاختبار التجريبي الحياتي؟ فلنقرأ كانديد، أو لنختبر فكرة لايبنتز وآراءه بأن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، وأن «ليس بالامكان أبدع مما كان»، كما يعبر المتكلمون المسلمون.

١٢
―
٦

«كان بنغلوس يعلّم مابعد الطبيعة وعلم الهيئة فيثبت بما يثير العجب، أنه لامعلول بلا علة، وأن قصر مولانا البارون أجمل القصور في هذا العالم *

كانديد ص ١٣٨

الذي هو أحسن مايمكن من العوالم ، وأن السيدة أصلح بارونة يمكن أن تكون .

وكان يقول : لقد ثبت أن الأشياء لايمكن أن تكون غير ماهي عليه ، وذلك أن كل شيء إذ صنع لغاية كان كل شيء لأصلح غاية بحكم الضرورة ، فلاحظوا أن الأنوف صنعت لوضع نظارات ، ولذا فإن لدينا نظارات ، وإن السيقان صنعت لتسرول ، ولذا فإن لدينا سراويل ، وإن الحجارة خلقت لتنحت ولتبنى بها قصور ، ولذا فإن لمولانا قصراً رائعاً جداً ، ولاعجب فيجب أن يكون بارون الاقليم الأكبر أحسن الناس منزلاً ، وبما أن الخنازير خلقت لتؤكل فإننا نأكل لحم خنزير في جميع السنة ، ومن ثم كان من الهراء زعم من قال إن كل شيء حسن ، فيجب أن يقال إنه على أحسن مايكون . *

حسناً أيها المعلم بنغلوس، أو أيها الفيلسوف لايبنتز، فلنختبر هذه الفكرة عبر الواقع والحياة، وعبر مايحصل لبنغلوس وكنديد فيهما، وليس في المماحكات والقياسات الذهنية، فمن هو كنديد ومن هو بنغلوس؟

١٢

٧

كنديد خادم في قصر بارون، وبنغلوس هو معلم في قصر هذا البارون، يعشق كنديد ابنة البارون فيطرد، وكذلك يطرد بنغلوس، وأخيراً يتشتت شمل أسرة البارون، فتتجول وتتشرد الحبيبة المعشوقة وتصل حتى أمريكا لتصير عشيقة للحاكم الاسباني هناك وبعد مغامرات ومآس كثيرة يجدها كنديد وقد كبرت وترهلت وصارت خادماً في الاستانة، حيث يلتئم شمل كنديد وحبيبته ومعلمه ويتركون المغامرة والتجوال والعذاب في هذا العالم بعد أن توصلوا إلى حكمة مأخوذة من درويش

* كانديد ص ٢٢ - ٢٣

تركي مفادها أن من الأفضل للمرء أن يترك هذا العالم للمقاتلين في سبيل نهبه، أي للملوك والتجاروالرهبان، وأن ينصرف لزراعة حديقته، والعيش من خضراواتها، لكن نسينا أن نذكر أن كنديد وتابعه كانا قد رأيا «يوتوبيا» متحققة في أمريكا، لقد رأى كنديد وتابعه مملكة «الالدورادو» وسنوردها كاملة فيما بعد، لكن لنتعرف أكثر إلى «كنديد» الكتاب.

١٢
―
٨

«كانديد» كتاب خيالي وتخييلي، يوتوبيا ورواية، رحلة وتجوال لباحث عن حبيبته، أو مثله الأعلى، مع تابعه وكأنهما دون كيشوت وسانشو بانسا، لكن من القرن الثامن عشر، وهو على كل حال نتيجة ومظهر للخيال الطليق الذي تكون في القرن الثامن عشر، أو كونه هذا القرن، مع صناعاته وكشوفه واختراعاته وتنويره وعقلانيته وتجريبه وباقي تقنياته.

تمتد رحلة كانديد وتابعه على مسرح العالم كله تقريباً، ذلك أن العالم كله بدأ يصير مسرحاً للمخيلة والتقنية والأفكار الأوروبية، ولم يعد دون كيشوت محصوراً في سهل المانشا فقط، فمن أوروبا إلى أمريكا إلى الاستانة، بل أن كانديد «يصرح» باستعداده للذهاب حتى إلى الصين باحثاً عن حبيبته أو مثله الأعلى، يمتد تجوال كانديد وحبيبته والآخرين، فرحلة كانديد ليست في سبيل التجارة شأن رحلة روبنسون كروزو، لكنها أقرب إلى رحلة دون كيشوت الباحثة عن المثل الأعلى، وإن كانت أكثر واقعية، إنها رحلة إنسان عادي بين ناس عاديين، حيث السرقة والاحتيال والقتل والاستعباد والحرب والاغتصاب في هذا العالم كله، أما هدفها المضمر فهو اختبار فكرة لايبنتز عن «أفضل العوالم» كما قدمنا، وما كانت الرحلة إلا تقنية اسلوبية لاستعراض هذه الفكرة

وتقليبها على وجوهها في مختلف أرجاء العالم، وبين مختلف أنواع ثقافات وحضارات البشر، فالرحلة هي الحامل الذي يوحد أفكار وأماكن وشخصيات هذه الرو اية - اليوتوبيا.

لكن أين وماهي هذه اليوتوبيا:

١٢
—
٩

«الالدورادو» وسنقرأها كاملة فيما بعد، هي يوتوبيا أوبلاد في أمريكا لم يصلها الأوروبي بعد فيفسدها، فليست يوتوبيا فولتير في الالدورادو «لامكان» وليست فردوساً متحققاً ومفقوداً في الزمن الماضي، إنها «مكان» ممكن وواقعي وقائم في العالم الجديد: أمريكا، إنها الجديد حقاً في هذا «العالم الجديد» أما خارج هذا «المكان» أي حيث وصل الأروبيون، من يسوعيين واسبان ومحاربين وتجار فقد وصلت الشرور، حتى صار «نصف الكرة الغربي مثل نصفها الآخر فكلاهما صار أوروبا، مثلما سيصير العالم بهذا المعنى، كله أوروبا فيما بعد، وأوروبا كما تعرفون ليست يوتوبيا متخيلة، وإن كانت يوتوبيا تحققت فأخفقت على مايبدو.

أوروبا ليست أفضل العوالم، فاليوتوبيا الحقيقية، تكون حيث لايوجد شرور من يسوعيين وحروب وتجارة وقتل واغتصاب، ويوتوبيا الحقيقية هناك حيث لاتوجد الصناعة إلا في خدمة البشر، وعلى كل حال فها هي «الدورادو» كما شاهدها كانديد مع تابعه ككنبو، وإن كانت مصورة بقلم فولتير، فبينما كان كانديد وتابعه يتجولان بحثاً عن الحبيبة أو المثل الأعلى، يصادفان وادياً ذهبياً، يقودهما إلى مملكة يوتوبية، حيث يحلان فيها ضيفين مكرمين.

فما هي هذه اليوتوبيا؟ وما هو بلد الالدورادو؟!

الفصل الثامن عشر*

ماشاهداه في بلد الالدورادو

أظهر ككنبو فضوله لمضيفه ، فقال له هذا : «إنني شديد الجهل ، وأراني راضياً عن هذا ، وإنما يوجد هنا شيخ اعتزل البلاط فيعد أعلم من في المملكة وأكثر من فيها ميلاً إلى بيان أفكاره» ، وقد أتى بككنبو إلى الشيخ من فوره ، وصار كنديد لايمثل سوى دور ثانوي ، ورافق خادمه ، ويدخلون منزلاً بسيطاً إلى الغاية ، وذلك أن الباب لم يكن من غيرالفضة ، ولأن ألواح سقف الغرف وجدرانها لم تكن من غير الذهب ، ولكن من صنع بالغ الذوق فلا تمحى أمام أغنى الألواح ، أجل ، إن غرفة الانتظار كانت مرصعة بالياقوت والزمرد ، ولكن ماعليه كل شيء من ترتيب ونظام كان يعوض من تلك البساطة المتناهية .

ويستقبل الشيخ الأجنبيين على متكأ محشو بريش صغار الطير ، ويقدم إليهما مشروبات بآنية من الماس ، ثم يشبع حبهما للاطلاع بالكلمات الآتية :

«بلغت من العمر ١٧٢ سنة ، وقد علمت من والدي المرحوم ، الذي كان اسطبلي الملك ، خبر ثورات البيرو المدهشة التي شاهدها ، وقد كانت

---

*كانديد: ترجمة عادل زعيتر – دار المعارف ، مصر ١٩٥٨ .

المملكة التي نحن فيها الآن جزءاً من وطن الانكا السابق ،من وطن هؤلاء الذين خرجوا منه بلا ترو لفتح قسم من العالم فأبادهم الاسبان أخيراً .

«وقد ظهر أمراء أسرتهم الذي بقوا في بلدهم الأصلي أكثر حكمة ، فأمروا ، بموافقة الأمة ، ألا يخرج أي ساكن من مملكتنا الصغيرة مطلقاً ، وهذا ماحفظ لنا صفاءنا وسعادتنا ، ويعرف الاسبان هذا البلد معرفة مبهمة ، يسمونه الدورادو ، ومما حدث منذ نحو مئة سنة أن دنا من هذا البلد انكليزي اسمه الفارس راله ، ولكن بما أننا محاطون بجبال وعرة وهوى فإننا بقينا حتى الآن في مأمن من جشع أمم أوروبة التي تتصف بطمع لايمكن أن يتصور في حصباء بلدنا وطينه فتقتلنا على بكرة أبينا نيلا لهما»

طال الحديث ، وقد دار حول شكل الحكومة وحول الطبائع . والنساء والتمثيل الروائي والفنون ، وأخيراً جعل كنديد ، الذي كان يتذوق مابعد الطبيعة دائماً ، ككنبو يسأل عن وجود دين في البلد .

احمر وجه الشيخ قليلاً ، وقال : «كيف يساوركما شك في ذلك ؟ أتظنان أننا ناكروا النعمة ؟» وسأل ككنبو بتواضع عن دين الالدورادو ، فاحمر وجه الشيخ مرة أخرى وقال : «أيمكن أن يوجد دينان ؟ أعتقد أننا نعتنق دين جميع الناس ، فنعبد الله من المساء إلي الصباح» ، فقال ككنبو الذي كان يقوم ، دائماً ، بترجمة ريب كنديد : «أتعبدون إلهاً واحداً فقط ؟» ، فقال الشيخ : «لايوجد إلهان ولاثلاثة ، ولاأربعة كما هو ظاهر ، وأعترف لك بأن رجال عالمكما يضعون أسئلة بالغة الغرابة» ، ولم يتعب كنديد من سؤال هذا الشيخ الصالح ، فأراد أن يعرف كيف يدعون الله في الدورادو ، فقال الحكيم الصالح الجليل : «نحن لاندعوه مطلقاً ، فلايوجد مانسأله أن يعطينا إياه ، وقد أنعم علينا بكل مانحتاج إليه ، وإنما نشكر له دائماً» ، ويبلغ كنديد من الفضول مايريد معه أن يرى قساوسة ، فيسأل عن مكانتهم ، فيبتسم الشيخ الصالح ويقول : «كلنا قساوسة ياصاحبي ، وينشد الملك وجميع أرباب الأسر ، محتفلين ، تسابيح في كل صباح ويرافقهم في ذلك خمسة آلاف ، أو ستة آلاف ، من الموسيقيين» ، «- ماذا . . ألا يوجد عندكم ، مطلقاً ،

رهبان يعلمون ويجادلون ويحكمون ويكيدون ويحرقون من ليسوا على رأيهم ؟» ويقول الشيخ : «نعد من المجانين لو كان عندنا ذلك ، فكلنا هنا على رأي واحد ، ولانعرف ماتعني برهبانكم» ، ويظل كنديد في حال وجد بهذا الكلام ، ويقول في نفسه : «هذا يختلف كثيراً عن فستفالية وعن قصر السيد البارون ، ولو رأى صديقنا بنغلوس الدورادو لكف عن الادعاء بأن قصر ثندرتن ترنك خير ماعلى الأرض ، فالحق أن على الانسان أن يسيح» .

أمر الشيخ الصالح ، بعد هذا الحديث الطويل ، بأن تعد عربة ذات ستة كباش وجعل مع السائحين اثني عشر في خدمه ليأخذوهما إلى البلاط ، وقد قال لهما : «لي معذرة في كون سني تحرمني شرف مرافقتكما ، وسيقابلكما الملك بما لايسيئكما ، وستغفران للبلد عاداته لاريب إذا ماوجدتما فيه أناساً لايروقونكما» .

ويركب كنديد وككنبو العربة ، وتغذ الكباش الستة في العدو ، ويبلغ قصر الملك ، الواقع في طرف العاصمة ، في أقل من أربع ساعات ، ويبلغ ارتفاع الرتاج (١) ٢٢٠ قدماً ، ويبلغ عرضه مئة قدم ، ومن المتعذر أن يعبر عن المواد التي أنشئ منها ، ويمكن أن يبصر بما فيه الكفاية سموه العجيب الذي يجب أن يكون له على تلك الحصباء وذلك الرمل اللذين نسميها ذهباً وحجارة كريمة .

استقبل كنديد وككنبو عشرون من فتيات الحرس الحسان عند نزولهما من العربة ، ويأخذنهما إلي الحمامات ويلبسنهما حللاً من زغب صغار الطير ، ثم يأتي بهما إلي جناح جلالته كبار ضباط التاج وضابطاته ، وذلك بين صفين مشتمل كل منهما على ألف موسيقي وفق العادة المتبعة ، فلما اقتربا من بهو العرش سأل ككنبو موظفاً كبيراً عن الوضع الذي يتخذ لتحية الملك ، وذلك : هل يجب الركوع أو السجود ، وهل يجب وضع اليدين على الرأس أو على الخلف ، وهل يجب لعق غبار الردهة ، والخلاصة أنه سأله عن

(١) الرتاج: الباب العظيم

المراسيم ، فقال الموظف الكبير : «إن العادة تقضي بأن يعانق الملك وأن يقبل من خديه» ، ويلقي كل من كنديد وككنبو ذراعيه حول عنق جلالته الذي استقبلهما بكل مايتصور من اللطف والذي رجا منهما بأدب أن يتناولا العشاء .

وريثما يحل وقت العشاء أريا المدينة والمباني العامة التي تناطح السحاب والأسواق المزينة بألف عمود ، وعيون الماء الزلال ، وعيون ماء الورد ، وعيون مشروبات قصب السكر الجارية باستمرار في أماكن عظيمة مبلطة بضرب من الجواهر التي تنشر مثل رائحة القرنفل والقرفة ، سأل كنديد أن يزور دار القضاء فقيل له انها غير موجودة ، فلا توجد خصومات ولامرافعات مطلقاً ، ويسأل عن السجون فيقال له انها غير موجودة أيضاً ، ودار العلوم هي أكثر ماأثار حيرته وأوجب سروره ، ففي هذه الدار رأى رواقاً بالغاً من الطول ألفي خطوة زاخراً بالأدوات الرياضية والأدوات الطبيعية .

قضيا جميع مابعد الظهر في الطواف في نحو جزء من أجزاء المدينة الالف ، فأعيدا إلى الملك ، ويجلس كنديد حول المائدة بين جلالته وخادمه وككنبو وكثير من السيدات ، ولم يقم ، قط ، خير من هذا قصفاً ، ولم يحدث حين العشاء ، قط ، أكثر من جلالته مزحاً ، وكان ككنبو يوضح لكنديد دعابات الملك الرائعة ، فتبدو من الكلم الطيب على الرغم من ترجمتها ، ولم يكن هذا الذي دهش له كنديد أقل الأمور التي دهش لها .

قضيا شهراً في دار الضيافة ، وما انفك كنديد يقول لككنبو : «أجل ، ان القصرالذي ولدت فيه لايقاس بالبلد الذي نحن فيه ، ولكن الأنسة كونيغوند ليست هنا ، ولابد من أن تكون لك صاحبة في أوروبة ، فإذا مابقينا هنا غدونا ككل إنسان أخر ، وإذا ماعدنا إلى عالمنا مع اثني عشر كبشاً محملاً من حصباء الدورادو بدونا أغنى من جميع الملوك معاً وصرنا لانخشى قضاة تفتيش وسهل علينا استرداد الأنسة كونيغوند» .

راق هذا القول ككنبو ، وماكان يمازج الاثنين السعيدين كثيراً من حب التنقل والمباهاة أمام الأصدقاء وعرض مارأيا في الرحلات ، شأن غيرهما ،

جعلهما يعزمان على عدم البقاء سعيدين ، وذلك بأن يستأذنا جلالته في الرحيل .

ويقول الملك لهما : «هذه حماقة ، نعم ، أعرف أن بلدي صغير ، ولكن الانسان إذا مارضي عن مكان وجب أن يبقى فيه ، ولاحق لي في إمساك الأجانب لاريب ، وهذا طغيان لاتقره أخلاقنا ولا قوانيننا ، فجميع الناس أحرار ، واذهبا متى شئتما ، بيد أن الخروج صعب جداً ، ويتعذر السير على عكس النهر السريع الذي وصلتم عليه بمعجزة والذي يجري تحت قباب من صخر ، وتبلغ الجبال المحيطة بمملكتي من الارتفاع عشرة آلاف قدم ، وهي قائمة كالجدار ، ويشغل كل منها مساحة تزيدعلى عشرة فراسخ ، ولايمكن أن ينزل منها بغير هوى ، ومع ذلك أراكما عازمين على السفر عزماً مطلقاً ، فسآمر مديري الآلات أن يصنعوا منها واحدة تنقلكما بسهولة ، فإذا تم إيصالكما إلى الناحية الأخرى من الجبال لم يمكن أحداً أن يرافقكما ، وذلك لأن رعاياي قطعوا على أنفسهم عهداً بألا يخرجوا من نطاقهم مطلقاً ، وهم من الحكمة مالا ينقضون معه ميثاقهم ، واسألاني كل ماتريدان فضلاً عن ذلك» ، فقال ككنبو : « لانسأل جلالتك غير بضعة كباش محملة زاداً وحصى وطيناً من البلد» ويضحك الملك ، ويقول : «لاأستطيع أن أفهم السر فيما يحمله أهل أوروبا من ذوق لطيننا الأصفر ، فخذا ماتريدان ، وأكثر مامنه تنتفعان» .

ويأمر مهندسيه من فوره بصنع آلة لرفع هذين الرجلين العجيبين خارج المملكة ، ويعمل فيها ثلاثة آلاف عالم طبيعي ، وتصير معدة في نهاية اسبوعين ، ولم تكلف أكثر من عشرين مليون جنيه استرليني ، ووضع كنديد وككنبو على الآلة ، وأحضر كبشان كبيران أحمران مسرجان ملجمان ليتخذا مطية لهما بعد مجاوزة الجبال ، كما أحضر عشرون كبش أثقال محملة زاداً ، وثلاثون محملة هدايا من أمتع مافي البلد ، وخمسون محملة ذهباً وجواهر والماساً ، ويعانق الملك العيارين [١] عناق حنان .

---

(١) العيار: الكثير التجوال والطواف مع سيره وفق هواه.

ومن المناظر الرائعة سفرهما والنمط البديع الذي رفعا به وهما وكباشهما إلى ذرى الجبال ، ويستأذنهما العلماء الطبيعيون في الانصراف بعد أن جعلوهما في مأمن ، ولم يبق لكنديد مطمع آخر وغرض آخر غير الذهاب لعرض كباشه على الآنسة كونيغوند ، وقد قال : «لدينا ماندفعه إلى حاكم بوينوس ايرس ثمناً للآنسة كونيغوند إذا أمكن اشتراؤها ، ولنسر نحو كاين ، ولنبحر ، ثم نرى أي مملكة نستطيع أن نبتاع»(*) ا.هـ .

هذه هي الدورادو الواقعية والممكنة، بل والموجودة، لكن جان جاك روسو ١٧١٢ - ١٧٧٨ سيعترض على كل هذه الحضارة والتجارة والصناعة والعقلانية، والمؤسسات الملكية الخاصة أياً كانت، فهي كلياً، لاتجلب إلا الشر، والأفضل أن نضع «القلب» مكان العقل، والطبيعة مكان المخيلة، والقرية مكان المدينة، والغابة مكان المصنع، وأن نعود سالمين إلى طبيعة الانسان الخيرة، طبيعة ماقبل هذه المدنية كلها، فتحسين هذا العالم وتشييد يوتوبياه، لايمكن أن يكونا بواسطة العقل والتجربة والعلوم التقنية كما يريد «عصر فولتير» وإنما يكون ذلك بالعودة إلى أحضان الطبيعة الأم، وترك كل هذه «المؤسسات الحضارية» التي لم تفعل شيئاً غير افساد اليوتوبيا الحقيقية، وأمام هذه الدعوة الساذجة، في عصر «فولتير» المندفع، والذي كان مايزال في بداية ديناميكيته واندفاعه، لم يجد فولتير للرد على روسو الذي أهداه كتابه المحتوي والداعي إلى هذه الأفكار، إلا كتابة الرسالة التالية:

«تلقيت كتابك الجديد ضد الجنس البشري ، وأشكرك عليه . فلم يحدث بالمرة أن استخدمت البراعة على هذا النحو بهدف جعلنا جميعاً حمقى . ،

---

*كانديد: الفصل الثامن عشر كاملاً.

وان الانسان وهو يطالع كتابك ليتوق إلى أن يمشي على أربع ، ولكني لما كنت أقلعت عن هذه العادة منذ أكثر من ستين عاماً ، فإنني لأشعر بالشقاء لاستحالة استعادتها ، كما لايسعني أن أبحر بحثاً عن بدائيين في كندا . ذلك أن الأمراض التي أصبت بها تجعل الجراح الأوروبي شيئاً ضرورياً لي . وذلك لأن الحرب تدور رحاها في تلك المناطق ، ولأن نموذج أفعالنا جعل البدائيين أقرب إلى أن يكونوا سيئين بنفس درجة سوئنا» .

سخرية مريرة سخرية «واقعية وعقلانية» فالعودة إلى الوراء ماعادت ممكنة، والسفينة أقلعت، والآلة بدأت حركة قصورها الذاتي، ولن تتوقف بنصائح روسو أو مزاجه النوستالجي، فالعصرالعقلاني التقني وحضارة الآلة ماتزال في بدايتها، لكن لن يطول الوقت حتى يتردد صوت روسو، مرة أخرى، وبشكل أقوى وأوضح، في القرن العشرين، وخصوصاً لدى دعاة البيئة، محذراً من خطورة الانسياق وراء هذه المخيلة الصناعية – المدنية، ولن تكون الاجابة هذه المرة سخرية، بمقدار ماستكون تحسساً بشرياً بالخطر، بعد أن أظهرت التقنية والتنمية غيرالمحدودة حدودهما وأخطارهما، وبعد أن بدأ الانسان يدرك أن الأكثر أهمية من السيطرة على الطبيعة، أو الصراع معها، هو العيش مع هذه الطبيعة، والتعايش معها أوفيها، فللانسان جانب وبعد طبيعي، وليس الانسان مجرد عقل وصناعة ومدنية وصلب واسمنت وسلع، شأن المدنية التي وصلها الانسان في أواخر القرن العشرين، انطلاقاً من القرن الثامن عشر، وعلى كل حال، فالتناقض الحاصل ابتداء بين رؤية «فولتير وعصره» وبين رؤية «جان جاك روسو» العائش في هذا العصر إياه، هو مرة أخرى نلجأ إلى «بول هازار» أحد مظاهر «أزمة الضمير الأوروبي» مثلما التناقض بين حلم القرن الثامن عشر وماتحقق وماتلا، فيما بعد، أو كما نعيش اليوم، أو أحد مظاهر أزمة الضمير والوعي والتاريخ الأوروبي – الكوني المتناقض تكويناً وسيرورة وسلوكاً ومآلاً، هذا

التاريخ، هذا الفكر، الأوروبي - الكوني، أي المعمم على الكرة الأرضية، المتناقض بين عالميته وشموله الانسانيين، وبين حدوده ومحدوديته الأوروبية - وأمريكا استطالة لأورروبا - والبورجوازية انه تناقض بين «اليوتوبيا» للانسان عموماً وشمولاً، وبين المسيرة العنيفة والدامية لهذا التاريخ، وهذا الفكر، ومانتج عنهما، وماتحقق بواسطتهما، أو باسمهما، إنه التناقض بين أمريكا - العالم الجديد - الحلم البشري، وبين أمريكا التي صارت استطالة للعالم القديم أي أمريكا الواقع.

بدءأمن القرن الثامن عشر ومابعده صارت الأفكاراليوتوبية تأخذ مظاهر أخرى من التخييل، ولم تعد مقتصرة على التخييل السردي والتجوالي في العالم الجديد: أمريكا، وبدءاً من القرن الثامن عشر صارت الرواية الفن الكتابي الأول في العالم الحديث، وستقدم الرواية في القرن التالي - التاسع عشر، أهم كتاباتها وكتابها، بدءاً من القرن الثامن عشر، قرن المدينة والصناعة والتنوير، ستصبح الرواية ملحمة هذا العالم ويوتوبياه المرجوة والمأمولة، فالقرن التاسع عشر هو «قرن الرواية» بمقدار ماهو قرن الرأسمالية «العالمية» المتحققة، وقرن اليوتوبيا الاشتراكية المأمولة. قرن الاستعمار وتوحيد الكرة الأرضية علماً وقسراً.

ماهو القرن التاسع عشر، وأية يوتوبيا صارت فيه واقعاً وايديولوجية، وأية يوتوبيا أخفقت، ماهو القرن التاسع عشر وماذا حدث فيه من تخييل روائي ويوتوبي، سردي وفكري.

القرن التاسع عشر

الفصل الثاني عشر

القرن التاسع عشر

١٣
―
١

«من هذا الفتى المقبل من عالم الأنوار ، اللابس سربال المجد والاقتدار . المتمنطق بنطاق السطوة والانتصار . من هذا الفتى المتلالي بالبهاء والجمال .الرافل بذيول الوقار والكمال . المختال في السعادة والكرامة والاقبال . من هذا الفتى المتزين بالعلم والأدب . المتجمل بالتمدن والتهذيب والذهب . والمتحلي بحلي الوطر والأدب . من هذا الفتى البالغ في مرقاهمةالاجتهاد إلى أقصى درجات السمو والارتفاع . الواصل إلى أشم قمم الفلاح والانتفاع . هذا هو القرن التاسع عشر الذي اطلع على غرته كل شموس القرون الغابرة ولبس كل كرامة الاعصار الغابرة . وتمنطق بكل قوة الأزمان الدابرة . هذا هو القرن التاسع عشر الذي تلألأ بأنوار محاسن الخليقة وجمال أسرارها . ورفل بمهابة الطبيعة وكمال أطوارها . واختال في كل المقدرة والظفر . وتناهى بالغنى والثروة والقدر . هذا هو القرن التاسع عشر الذي تزين بعلم الموجودات ومعرفة الكائنات . وإدراك الواجبات . وتجمل بتنظيم النواميس والشرائع . وضم شمل الهيئة والمواقع . ورفع صولجان العقل القاطع . هذا هو القرن التاسع عشر الذي بلغ أعلى مراتب الكمال وأرفع درجات المعالي والفخار وجلس على رؤوس الأدهار . فماذا جعل هذا القرن سلطان القرون وألبسه تاج المجد والحصون . وما الذي أطلعه في هذا الوجه الوسيم . وأكسبه ذلك الفوز العظيم . وكيف قد بلغ هذا المحل البازخ . وتبوأ ذاك المقام الشامخ . هو العلم الذي مهد له المسالك . وأوصله ذلك فهلموا بنا يابني الوطن إلى اكتساب العلم . . .*

---

*راجع الخطبة كاملة في: مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر. جمعه: يوسف صغير، المطبعة العثمانية.. بعبدا - ١٩٠٦ - لبنان.

قائل هذه «المدحة» في القرن التاسع عشر ليس أوروبياً، كما لعلكم أدركتم من الأسلوب اللغوي، بل هو الكاتب العربي فرانسيس مراش (١٨٣٦ - ١٨٧٣) يمدح القرن التاسع عشر بجوهره ، أي بالعلم. فالعلم هو الذي أتاح للقرن التاسع عشر مجده وسيطرته، فما هو هذا العلم؟

سبق أن أوردنا أن تغيراً قد حصل منذ عصر النهضة في مفهوم العلم أو المعرفة، وغايتهما. فالعلم والمعرفة اللذان كانا عند اليونان والعرب سعادة ذهنية، صارا ومنذ «فرانسيس بيكون» قوة، وصارت القوة سيطرة، أما منهج العلم فهو التجريب والمخيلة، وأداته العقل بعملياته، وحقل عمله الطبيعة بتنوعها ورحابتها وكائناتها، ولهذا كانت أطلنتس الجديدة لفرانسيس بيكون يوتوبيا مختبرية علمية، لكن هذه اليوتوبيا المختبرية الحالمة مالبثت منذ القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر تحديداً أن تحولت إلى ايديولوجيا للطبقة الجديدة التي حملت لواء هذا العصر الذي بدأ مع الكشوف الجغرافية عصراً تجارياً، وصار في القرن التاسع عشر، صناعياً، والصناعة والتجارة، بحكم قوتهما وديناميكيتهما تحتاجان أسواقاً، والبحث عن الأسواق ثم الاستيلاء عليها كان هو الاستعمار، وقد أصبحت عملية الوصول إلى الأسواق، وعملية التصنيع سهلة بعد اختراع الآلة البخارية والسكة الحديدية، واستخدام الفحم الحجري «الطاقة» والحديد في الصناعة، وهكذا تعمم مخطط الحياة الصناعية على باقي المجتمع الأوروبي، ثم على العالم، ثم تقدم الاله البورجوازي الجديد: الحديد، فكان نصب «برج ايفل» حديداً في حديد، ولاأكثر إعلاناً مرتفعاً نحو السماء معلناً العصر الجديد، إنه الحديد «الأوروبي» يعلن مجده، بل يعلن أنه قادر على تحقيق اليوتوبيا البشرية، فأي مجتمع بناه الحديد؟ وكيف بني هذا المجتمع، وهل حقق هذا الحديد أحلام البشر أخيراً في السعادة الانسانية؟

١٣
٢

إن ماكان حلماً يوتوبياً فيما مضى، صار حقيقة، فالانقلاب الصناعي أو «الثورة الصناعية» والتي بدأت عملياً في أوائل القرن التاسع عشر، خلقت آلية ومركباً اجتماعياً جديداً شاملاً لأوروبا والعالم، بل وخلقت «جغرافيا» جديدة، جغرافيا ماعادت المحيطات والأنهار والجبال بالنسبة لها حدوداً ومواقع، فالقطار وحَّد اليابسة، والباخرة قد ربطت الجزر والمحيط باليابسة، وفيما بعد ستأتي السيارة والطائرة كتحصيل حاصل في هذا الاندفاع العلمي الأوروبي نحو الخروج من اسار قوانين الوجود الطبيعي الزمانية والمكانية والجسدية، من ناحية أخرى فقد صار بالامكان أن تقوم دولة مركزية قوية تضبط فيها المقاطعات البعيدة عن المركز- العاصمة، نظراً لسهولة الاتصال وصعوبة التمرد والانفصال، كما صار من الصعب على المجتمعات الأخرى التحصن ضمن حدودها الطبيعية من غابات وبحار وجبال، وببساطة فقد زنرت أوروبا العالم بحزامها الجديد، فانتقل الاستعمار من السواحل ونقاط التجارة البحرية إلى الداخل ونقاط الكثافة السكانية للشعوب التي لم يسعدها الحظ فتحصل على البارود والبوصلة والمطبعة، على الفحم والحديد والمدفع، بل وصار بالامكان الوصول إلى الخامات المعدنية أينما كانت، ونقلها إلى أوروبا حيث تصنع ويعاد بيعها، فتكسب أوروبا بذلك ربحين: ربح المواد الأولية، وربح بيع السلع المصنعة، والعالم كله، من أمريكا إلى الهند والصين وأفريقيا صار منجماً أو سوقاً أو أرضاً مفتوحة للاستعمار، ولهذا بدت أوروبا سيدة العالم وحاضرته وملكته، وكل هذا تحقق منذ القرن التاسع عشر، فحق لفرانسيس مراش أن ينشد مدائحه، فأوروبا صارت مركز العالم، وإذا كنا قد سمعنا شهادة فرانسيس المراش المعجبة بالقرن التاسع عشر الذي هو قرن أوروبا

وبورجوازيتها الصاعدة، وتجارتها وصناعتها واستعمارها وفكرها وأدبها، بامتياز، مثلما هو قرن وحدة العالم، ودخول الشعوب الأخرى في تاريخ جديد للعالم، فلنسمع شهادة أخرى عن هذا القرن، وهذا العصر، لمفكر أوروبي هو كارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٧٢، ولم لا؟ فماركس الذي يريد الكثيرون اليوم معاملته مثل «جثة ميتة» إنما هو حي في رؤيته التي كانت تكثيفاً للقرن التاسع عشر، مثلما كان نتاجه، هذا القرن الذي مازلنا نعيش على «بقايا»تنظيماته المجتمعية وإبداعاته وكشوفاته الفكرية ،والاقتصادية، بل والتخييلية.

«يمدح» ماركس القرن التاسع عشر في «البيان الشيوعي» على طريقة فرانسيس مراش تقريباً، فيكتب:

«وخلقت البورجوازية ، منذ تسلطها الذي لم يكد يمضي عليه قرن ، قوى منتجة تفوق في عظمتها كل ماصنعته الأجيال السالفة مجتمعة ، فإن إخضاع قوى الطبيعة ، واستخدام الآلات وتطبيق الكيمياء في الصناعة والزراعة ، ثم الملاحة البخارية والسكك الحديدية والتلغراف الكهربائي ، وهذه القارات الكاملة التي كانت بوراً فأخصبت ، وهذه الأنهار والترع التي أصلحت وراحت البواخر تمخر عبابها ، وهذه الكتل البشرية التي كأنما قذفتها من بطن الأرض قوة سحرية ، أي عصر سالف وأي جيل مضى كان يحلم بأن مثل هذه القوى المنتجة العظيمة كامنة في قلب العمل الاجتماعي» .

بالطبع لايمكن لأحد أن يتهم ماركس بنفاق البورجوازية وامتداحها، فالرجل كان يصف مايرى، وهذا هو جوهر كتابه الرأسمال: وصف أو تشريح الرأسمالية كما هي، بآلياتها وصورتها، لكن ماقدمناه كان نصف الصورة فقط في رؤية ماركس، أو رسمه للقرن التاسع عشر، فماركس لم يكن مجرد «عربي» معجب بأوروبا واختراعاتها مثل فرانسيس

مراش، ماركس هو ابن عصر التنوير الفرنسي، مثلما هو ابن الحلم اليوتوبي الأوروبي والعالمي، ولهذا نكمل عرض الصورة كما رآها ماركس في البيان الشيوعي.

«أما المجتمع البرجوازي الحديث الذي ولد من أحشاء المجتمع الاقطاعي، فإنه لم يقض على التناقضات بين الطبقات، بل أقام طبقات جديدة وظروفاً جديدة للاضطهاد، وأشكالاً للنضال بدلاً من القديمة»

أين هو الحلم الصناعي اليوتوبي العلمي البورجوازي إذن؟ أين هي «أطلنتس الجديدة» و «مدينة الشمس» ويوتوبيا توماس مور؟ أين هو حلم دون كيشوت بالعدالة إذن؟ أين هي «الدورادو» فولتير؟! ماذا نفعل؟! وإذا كان العدل لم يتحقق من كل هذه التجربة الحالمة، من كل هذا الحلم اليوتوبي؟ هل نتابع «روسو» ونهجر المدينة والمعمل، وحلم العالم الجديد، حلم «أمريكا»، هل نعود إلى الطبيعة؟

ماركس أدرك استحالة هذا، بل وعقمه، مثلما أنكر مايحيط به ويملأ القرن التاسع عشر من استغلال وقهر، قرأ مثالاً عنهما في كتاب صديقه أنجلز «وضع الطبقة العاملة في بريطانيا» حيث يعرض الكتاب استغلال وعذاب العمال الانكليز، ولهذا اتجه، مع تلامذته اتجاهاً مناقضاً لاتجاه «روسو» واتجاه البورجوازية معاً، فلتدفع المخيلة إلى أقصى حدودها، ولتدفع الصناعة والعلوم إلى أقصى امكاناتهما، ولتبنى اليوتوبيا بذلك أو بعد ذلك، لتعمم الصناعة، وربما لهذا سمي ماركس «فيلسوف التقنية» ولكن لتكن خيرات التقنية للناس جميعاً، ليفكك هذا «اللواثيان» الذي هو الدولة، والذي رفعه هيغل إلى مستوى المطلق، ولتنسف الدولة في المستقبل، لتحل، ولتعش هذه الأرض في سلام وسعادة ومساواة، وليكن العمل متعة ولعباً، ولتنسف كل أ شكال الاستغلال والقهر والنفاق والكذب البشري وليكن «مكان» اليوتوبيا هذه

الأرض. وإذا كانت الرأسمالية قد وحدت العالم فشكراً لها، فهذه إرادة التاريخ وآليته وعدالته، ولكن لن يمكن بعد اليوم الرجوع عن هذه «الأممية العالمية» وهذه الصناعة، وحتى تكون هذه الأممية البشرية الجديدة سعيدة حقاً، فلتسقط البورجوازية عن كرسي السلطة، وليأت مكانها أولئك الذين صنعوا هذه الوحدة العالمية وصنعوا خيرات هذا العمل بجهودهم، فهؤلاء هم الثوريون حتى النهاية، وليس إلى نصف الطريق كالبورجوازية، وليكن العلم والتكنولوجيا في خدمة هذه اليوتوبيا البشرية الشاملة، وربما بسبب هذه الآراء اتهم ماركس بأنه حول الفلسفة إلى مجرد «علم اجتماع».

١٣
―
٣

هذه كانت يوتوبيا ماركس والماركسية، وهي يوتوبيا تقوم على تحليل منجزات البورجوازية واعتماداً عليها، منجزات الصناعة والعلم والعقلانية والروح التجريبية والروح الرومانتيكية، روح العاصفة والاندفاع، الروح النقدية الألمانية، وقبل كل شيء كانت الماركسية ابنة عصر التنوير، وبنت أيتام التنوير والثورة الفرنسية الذين وجدوا أنفسهم في قارعة الطريق، بعد أن ظنوا أن الثورة الفرنسية القادمة، ثم المتحققة فيما بعد، ستنصفهم، وإذا بهم يعدمون مع بابوف وأصدقائه «المساواتيين» أو يهربون إلى الخارج ليحققوا يوتوبياهم خارج أوروبا كما فعل «أنصار سان سيمون» في مصر، ومن لايذكر الدعوات والتخييلات الاشتراكية وأحلام وتخطيطات مارشال وبرودون وديشان وموريلي ومسليه، الذين سبقوا الثورة الفرنسية ومهدوا لها، أو أتوا على اثرها، وقد ظلم أنجلز والماركسيون التالون هؤلاء الاشتراكيين الفرنسيين الحالمين عندما نظروا إليهم بتعال وسموا اشتراكيتهم «طوباوية»

واحتفظوا لأنفسهم بصفة «العلمية» على سبيل الاستعلاء ومجاراة لعصر العلم أيضاً، مع أن مشروعهم «الاشتراكي العلمي» لايقل طوباوية عن مشروع توماس مور في «يوتوبيا» أو عن مشروعات هؤلاء الطوباويين.وإن كانت صفة اليوتوبية هنا لاتنتقص من قدر المشروع فيما نرى، فاطلنتس بيكون كانت يوتوبيا ولكنها تحققت، ونحن منذ القرن التاسع عشر، وخصوصاً في القرن العشرين، نعيش في المدينة التي تخيلها لنا فرانسيس بيكون، وماكان عنده يوتوبيا وخيالاً يوتوبياً، صار عندنا ايديولوجيا حاكمة، ومجموعة من الأفكار والعقائد والنظم التي تحدد هويتنا اليوم والتي نختصرها بعبارة: التكنولبوجيا. فإذا كانت الايديولوجيا الدينية تقوم على حامل هو الله، فإن ايديولوجية البورجوازية تقوم على حاملين هما التكنولوجيا والفرد، فالتكنولوجيا والفردية هما ايدولوجيتنا وهويتنا المعاصرة، بعد أن كانتا حلم فرانسيس بيكون ويوتوبياه في «اطلنتس الجديدة» ولهذا ربما كان علينا أن نجرد لفظة يوتوبيا ومفهومها مما شابها من نظرة استعلائية، بل وتحقيرية، تعاون في إضفائها على هذا المصطلح - المفهوم- الجنس الأدبي، البورجوازيون الخائفون من أن تكون هذه اليوتوبيا ملكاً للبشر جميعاً، وليست امتيازاً لقلة، مع بعض أتباع ماركس، «العلميين والصناعيين» أكثر من اللازم.

١٣
―――
٤

لكن «اليوتوبيا العلمية» استمرت تقدم رؤيتها على شكل تخييل ظافر ومعتد بنفسه في البداية، ومتخوف من العلم ونتائجه وطرق استخدامه فيما بعد، بل وأنتجت فناً تخييلياً جديداً أواخر القرن التاسع عشر هو «أدب الخيال العلمي» وهذا الأدب كان تماماً مثل الماركسية،

مزيجاً من الواقع والمخيلة، مزيجاً من تمجيد العلوم، وانتقاد سوء استخدامها البشري، مزيجاً من الواقع العلمي وواقع الكشوف والاختراعات في اندفاعها وانفتاح آفاقها، مزيجاً من المخيلة التي باتت بواسطة العلم والعقل والتقنية، تظن نفسها قادرة على حل كل المشاكل التي تقيد الموجود الانساني إلى ظروفه الوجودية والأرضية، الزمانية والمكانية والجسدية، بل ان المخيلة العلمية وأدب الخيال العلمي أخذا على عاتقهما مهمة عرض المطالب البشرية وربما الأماني، في الوصول إلى أقصى نقطة في الكرة الأرضية، أوفي السماء أو في أعماق البحار، وصولاً إلى مسألة تجاوز الزمن والخلود، وببساطة فقد صعدت المخيلة العلمية الواقع الصناعي والتكنولوجي والعلمي إلى مستوى الأسطورة، فصار الخيال العلمي بديلاً معاصراً وشعبياً للاسطورة اليونانية، مثلما هو شبيهها في آن.

١٣
―
٥

لم ننس الرواية ونحن نتكلم عن التكنولوجيا والصناعة وأهمية العالم الجديد، فالرواية محايثة وكامنة فيما حدث، إذ صارت الرواية هي النص العالمي التخييلي لهذا العالم الأممي الجديد، وإذا كان أوج تقدم البورجوازية والانسان عموماً قد حصل في القرن التاسع عشر، فقد قدمت الرواية هذا القرن بكل جوانبه وتفصيلاته ومشكلاته وصراعاته، بكل نجاحاته وإخفاقاته، بل وفرضت نفسها كديوان وصورة لملحمة القرن التاسع عشر، بما تحتوية وترسمه من أحلام وأوهام ووقائع، من «تراكم رأسمالي» وعذاب عمالي، ونهب استعماري، وبطر برجوازي، وربما لهذا كان مفكر وفي ومتفهم للقرن التاسع عشر مثل «فريدريك أنجلز» يستطيع أن يكتب عن روائي معاصر له مثل أونوريه دي بلزاك

قائلاً: «لقد تعلمت من روايات بلزاك عن فرنسا، أكثر مما تعلمت من كل كتب الاقتصاد التي قرأتها عن هذا البلد».

حقاً فالقرن التاسع عشر كان قرن الرواية، من الناحية الفنية والتخييلية، مثلما هو قرن «إنجاز» الرأسمالية - الصناعية، والشروع في الحلم اليوتوبي الشيوعي، ماهو الفن الروائي إن لم يكن روايات فلوبير وستاندال وبلزاك وديكنز والأخوة برونتي وهرمان ملفل و دوستويفسكي وتولستوي، وكما ترون فكلهم من إنتاج القرن التاسع عشر، وماهو الفكر والواقع في القرن التاسع عشر إن لم يكن الصناعة الرأسمالية والطبقة العاملة العالمية، والبورجوازية العالمية والاستعمار العالمي، والتفكير العالمي بحيث يستطيع كاتب من خارج أوروبا، و «قرنها التاسع عشر» أن يمدح هذا القرن.

العالم صار واحداً في القرن التاسع عشر، ولهذا فإن الرواية والحلم اليوتوبي منذ اليوم سيكونان عالميين أيضاً، وسيعود الحلم اليوتوبي في القرن التاسع عشر إلى الظهور رافعاً راية الشيوعية العالمية المؤسسة على وحدة العالم الواقعية والتي حققتها الرأسمالية، وغني عن القول أن حالمي هذه الشيوعية العالمية انتدبوا «الطبقة العاملة العالمية» لتحقيق هذا الحلم اليوتوبي بعد أن كسرت البورجوازية هذا الحلم، أو خانت الرسالة ومزقت الراية، كما بين الواقع العياني في القرن التاسع عشر برأسماليته الشرهة، بقهره العمال واستعباده الشعوب.

$\frac{١٣}{٦}$

للقرن التاسع عشر حديث طويل وآخر ومكان غير هذا المكان،، فاهتمامنا في هذا البحث نحو موضوع واحد ذي شعبتين هو المخيلة الأوروبية، وكما تبدت هذه المخيلة في فنين نراهما متقاربين في المنبع

والمصب وهما اليوتوبيا والرواية، فكيف قدمت الرواية، في سيرورتها ومفهومها وبعض نماذجها، يوتوبياها في هذا القرن الذي قدمنا قليلاً من سماته وصفاته وتناقضاته، في أحلامه ووقائعه، من يوتوبياه السابقة الحالمة بالسعادة والحرية والمساواة، والمتحولة إلى ايديولوجية الرأسمالية الاستغلالية والتناحرية، فايديولوجية القرن التاسع عشر الرأسمالية – الصناعية، اختزلت حلم النهضة الأوروبية ويوتوبياها إلى «عصر الصناعة» وبذلك اختزلت مفهوم الانسان إلى مفهوم المستهلك، وهذا ماأوجد ثنائيات مزقت وحدة المجتمع والانسان المتحققة في هذا القرن، ثنائيات تسير على التناظر التالي:

صناعة – استهلاك
بورجوازي – عامل
أوروبا – باقي العالم
متقدم – متخلف
غرب – شرق
شمال – جنوب
سيد – عبد
عاصمة – ريف
قوة –ضعف
انتاج – استهلاك
تصنيع – مواد أولية
سيطرة – قهر

وكما هو واضح، فقد مضى الزمن الذي كان الانسان يعرف فيه بأنه: حيوان مفكر أو عاقل، وأتى الزمن الأوروبي – الصناعي الذي صار بالامكان فيه تعريف الانسان بأنه حيوان مستهلك وفي أحسن

الأحوال حيوان يكد، ولنتذكر هنا رواية زولا واسمها الموحي: الحيوان البشري.

في مثل هذا العالم الجديد الذي بنته أوروبا ورأسماليتها على مقاسهما، وبواسطة العلم والصناعة، ولأجلهما فيما بعد، ذهبت الأحلام واليوتوبيات الأوروبية والانسانية هباء منثورا، وتبددت مثل أحلام مراهقين، فالعالم وعلى الرغم من وحدته الظاهرية هو واقع ثنائي صراعي متضاد، وكأن تلميذاً مستهتراً من تلامذة «ماني» يرسمه بالأبيض والأسود فقط، غير مبال بمن يتنعم في «الضوء» وبمن يجوع ويعرى في «الظلمة» فهل من عجب أن يكون انكسار الحلم، والاحتجاج على العقل والصناعة هو السمة العامة للرواية الأوروبية في القرن التاسع عشر، وهل من عجب أن يبحث حملة النهضة الأوروبية، ومتابعو دون كيشوت وأحلام ويوتوبيات البشر عبر التاريخ والقارات والأرض كلها، عن يوتوبيا جديدة، هل من عجب أن يستمر النسغ اليوتوبي سارياً في اتباع أحلام أفلاطون والفارابي وابن طفيل وتوماس مور وكامبانيلا وفولتير، وهل من عجب أن يهتف هؤلاء، وبعد كل ماجرى في القرنين الثامن والتاسع عشر مع ماركس:

«ياعمال العالم اتحدوا . . . فليس لديكم ماتفقدونه سوى أغلالكم . . . لكنكم تربحون عالماً كاملاً . . .»

وهذا العالم الكامل... وكما تعرفون أيها السادة هو: اليوتوبيا
لكن ماذا حدث فيما بعد؟!
فلنتابع «الرواية» إذن.

واقع اليوتوبيا وخيال الرواية

الفصل الثالث عشر

واقع اليوتوبيا وخيال الرواية

١٤
―
١

للروائي البريطاني سومرست موم كتاب لطيف بعنوان «عشر روايات خالدة» يدرس فيه مايعتبره أهم عشر روايات أنتجتها البشرية، والطريف في هذه الروايات العشر أن تسعاً منها مكتوبة في القرن التاسع عشر، وهي الروايات التالية حسب ترتيب سومرست موم:

الحرب والسلام	تولستوي
الأب غوريو	بلزاك
الكبرياء والهوى	جين أوستن
الأحمر والأسود	ستندال
مرتفعات ويذرنغ	اميلي برونتيه
مدام بوفاري فلوبير	فلوبير
الأخوة كرامازوف	دسوتويفسكي
موبي ديك	هرمان ملفل

أما العاشرة وتعود للقرن الثامن عشر فهي: توم جونز: لفلدنغ.

ربما كان الذوق والاختيار الشخصي هو الذي يجمع بين هذه الروايات بالنسبة لسومرست موم، وربما كان العصر بالنسبة لمؤرخ الأدب والرواية، أما نحن فسنحاول أن نرى مايجمع بينها من ناحية أخرى، من ناحية مضمونها، ومضمون عصرها وفي علاقتهما من ناحية

أخرى بالمحور الذي نسير عليه في هذا البحث، أي علاقة الرواية باليوتوبيا التي بدأت المخلية الأوروبية تحلم بها وتروي روايتها منذ القرن السادس عشر ، ثم بدأت تتحقق منذ القرن التاسع عشر، إلى أن اكتملت تقريباً في القرن العشرين

$\frac{١٤}{٢}$

لنتحدث مثلاً عن رواية ستندال: ١٨٧٣ - ١٨٤٢، الأحمر والأسود التي ظهرت عام ١٨٣١، ففي هذه الرواية تحدث المؤلف عن «جوليان سوريل» الشخصية البسيطة، وابن النجارالذي يطمح وهو شديد الذكاء إلى مكانة اجتماعية هامة، ولما لم يكن يملك رأسمالاً سابقاً من نبالة أو تجارة، من ثروة أو أرض، فقد كان أمامه سبيلان للصعود: الأسود، أي الرداء الكنسي، والأحمر، أي الرداء العسكري، وقد اختار جوليان سوريل الرداء العسكري الأحمر طريقاً للصعود وتحقيق الأحلام، لكن الأمور تتغير، فقد صدر قرار بعد عودة الملكة إلى فرنسا يحرم إلا على ذوي النبالة -طبقة الأشراف - الوصول إلى المراتب العليا في الجيش، ولما لم يكن جوليان سوريل «مجرد جندي» بل هو طامح للمناصب والرتب التي أغلقت دونه ودون طبقته، فقد ترك الجيش وسلك الطريق المفتوح الآخر، ألا وهو طريق الرداء الكهنوتي الأسود، وقد كان ذلك عن طريق الأب «شيلان» الذي عين سوريل مربياً لابناء عمدة إحدى القرى، وهناك يعشق زوجة العمدة النبيلة السيدة دي رينال، فهذا طريق آخر للصعود الطبقي فيما بدا لسوريل، ولكن الأمر يفتضح، فيترك سوريل القرية ويلتحق بالمعهد الديني، وهناك يعجب بذكائه المدير الذي أخذ سوريل معه عندما ذهب إلى باريس وعينه سكرتيراً لأحد النبلاء وهو

«المركيز دي لامول» مع متابعته لدراسته الدينية، وهنا تتكرر القصة، إذ يعشق سوريل ابنة المركيز، أملاً في أن تكون سلمه للصعود إلى الطبقة الراقية وتحقيق أحلامه، ولكن الآنسة «ماتيلد دي لامول» لم تكن سريعة الانقياد لنزواتها، وخاصة بالنسبة لسكرتير في عائلتها العريقة، فتهين الفتى الطامح على وقاحته وغزله، لكنه يستطيع أخيراً اللعب بعواطفها ونزع كبريائها، فتحمل منه، وهنا يصبح الأمر واقعاً، ويضطر والد «ماتيلدا» للموافقة على زواج سوريل من ابنته، وهكذا يفتح الباب أمام سوريل للصعود إلى الطبقة العليا، فيلحقه المركيز بالجيش مرة أخرى، وفي مرتبة عليا هذه المرة، لكن شريطة أن يستعلم عن أصل أسرته، فيكلف سوريل السيدة دي رينال بتقديم معلومات مناسبة، ولكن وشاية بتأثير أحد رجال الدين تأتي إلى المركيز تسيء إلى جوليان، وتقول عن سوريل بأنه زنديق ومتحلل من القيم لاعمل له إلا إغواء النساء وإهمالهن في ما بعد، وبهذا تخفق خطته.

أمام ذلك يتشدد المركيز في موقفه، ويرجع عن قراره بتزويج سوريل ابنته، أما جوليان سوريل فيعود إلى القرية، ويترقب السيدة دي رينال التي يظن أنها وشت به على باب الكنيسة ثم يطلق عليها النار كأنه يزيح العقبة الكبيرة في طريق صعوده أو ينتقم من الذين أعاقوه وبعدها يعتقل سوريل ويسجن، لكن ألمه الكبير كان بسبب السيدة دي رينال، الحبيبة الأولى، لكن الخائنة، وعندما يعرف حقيقة الفخ الذي نصبه له ولها رجل الدين الدساس، يعود إلى حبه الأول، إلى قلبه ويدرك ألا جدوى من كل هذا الطموح الأخرق، وهذه الأحلام الوهمية في الصعود، بل ولافائدة من الزواج من ماتيلدا والترقي في مناصب الجيش، ولهذا يؤثر ألا يدافع عن نفسه في المحكمة، وأن يحكم عليه بالاعدام، فليمت وفياً لحبه الأول، وناكراً لطموحه الأخرق، فكان بذلك مثله مثل قرنه التاسع عشر الذي أخفق في تحقيق اليوتوبيا والأحلام بعد أن قاربها.

١٤
―
٣

أسهبنا في تلخيص الأحمر والأسود حتى لانضطر للتلخيص الطويل للروايات الأخرى، من القرن التاسع عشر، فالحقيقة أن السمة الأساسية في أكثر هذه الروايات هي مشابهة للخط الأساسي في الأحمر والأسود، ألا وهو الطموح المخفق، أو الاخفاق في تحقيق الحلم الشخصي، فهذه «الثيمة» يمكن أن نقرأها في «الأب غوريو (١٨٣٥) لبلزاك ١٧٩٩ - ١٨٥٠» كما يمكن أن تقرأها في الروايات الأخرى مثل مدام بوفاري فلوبير، فثمة دائماً في روايات هذا القرن، «انسان طامح حالم» يخفق في تحقيق أحلامه وعلى مهاد وأرضية القرن التاسع عشر، أما لدى تولستوي، فالاخفاق يصبح في «الحرب والسلم» (١٨٦٩) أكبر، إنه إخفاق الانسان عموماً، الانسان الذي هو «لاشيء» تجاه قوى «الزمن» التي تحركه كما تحرك الدمى، وبهذا يبلغ إخفاق الانسان مداه، وتصل اليوتوبيا درجة الاستحالة، وتعود «لامكان» ولا وجود.

كيف حصل هذا التناقض بين عصر وقرن ظافر كان يحقق يوتوبيا وأحلاماً بشرية منها التقنية واكتشاف العالم وتوحيده، وبين أدب يعلن انكسار الحلم وتبدده وضياع اليوتوبيا، بل ويعلن أن الانسان ضعيف إلى درجة قصوى، حتى في عقله الذي يباهي به، فالأخوة كارامازوف و «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي، وهما من أهم روايات هذا القرن وأكثرها دلالة، إنما هما في جوهرهما هجوم، وهجوم قاس على العقل الأوروبي والعالمي في زمن انتصاره الكوني، واختراقه حتى للسهوب الآسيوية وبلاد الروسيا الشاسعة وأدغال أفريقيا وقارة أمريكا.

١٤
―
٤

كان الاتجاه الواقعي سائداً في الأدب الأوروبي، وخصوصاً الرواية في القرن التاسع عشر، وكان يتوازن في ذلك ويتوازى، وربما يتأثر بالاتجاهات الفكرية والعلمية والفلسفية التي جعلت همها معرفة الواقع والسيطرة عليه عن طريق تشريحه ووصفه كما هو، ولهذا بدت الآداب، والرواية من بينها، وربما رائدتها، وكأنها تقليد لهذه العلوم والأبحاث التشريحية بل وبالغت أحياناً وخصوصاً لدى اميل زولا (١٨٤٠ – ١٩٠٢) والمدرسة الطبيعية في الاعتماد على العلوم وتقليدها، إلى درجة أصبحت معها المخيلة الروائية تقليداً وصورة للواقع كما هو في فظاظته وقساوته وقوانينه البيولوجية والوراثية والاجتماعية، لكنها كانت في الوقت نفسه تستهدف من وراء هذا الكشف التشريحي، المعرفة، ودراسة حالة وإمكانية التغيير للانسان والمجتمع، بعد أن أظهرت اليوتوبيا العلمية والاجتماعية التي تحققت في القرن التاسع عشر على شكل المجتمع العلمي وسيطرة البورجوازية وظهور الطبقة العاملة واستعمار العالم، أن الانسان لم يتغير جوهرياً، واليوتوبيا السعيدة لم تتحقق، فالظلم والقهر مازالا ساريين، وربما من هنا تأتي تلك النغمة شبه الحزينة، شبه اليائسة، في أدب هذا القرن ورواياته، خصوصاً ممن وصفوا مباشرة أوضاع العمال والفقراء وآثار الانقلاب الصناعي مثل اميل زولا وتشارلز ديكنز، وربما من هنا يأتي هذا الرفض للعقل الأوربي والعقل عموماً الذي نلاحظه لدى دوستويفسكي، الذي كانت روايته «الأبله» إعادة لدون كيشوت، ولكن في القرن التاسع عشر، ومن هنا تأتي تلك النظرة الحادبة على هذا المخلوق الضعيف – على الرغم من تظاهره بالقوة – والذي هو الانسان، والتي يلمسها القارئ لدى

تولستوي وتشيخوف، ومجمل الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، وبتعميم قد يكون مجازفة نقول: ربما يمكن قراءة الرواية الأوروبية في القرن التاسع عشر على أنها تنويع أو معارضة لرواية دون كيشوت، ولكن دون كيشوت المخفق هذه المرة، دون كيشوت الذي تكسرت أحلامه، وهذا هو النسب أو الخيط الذي يصل رواية غراهام غرين «مونسنيور كيشوت» بجدتها العظيمة: دون كيشوت.

$\frac{١٤}{٥}$

ربما لهذا بدأ الهجوم على العلم والعقلانية والحضارة عموماً منذ هذه الفترة تحديداً، وقد اتخذ الهجوم طريقين: طريق مهاجمة العلم مباشرة، ومهاجمة مصدره العقل، والدعوة للعودة للايمان أو الطبيعة وآراء روسو، ولهذا ازدهرت في القرن التاسع عشر المدرسة الرومانتيكية في الشعر الأوروبي، فكانت رداً على هذا الانقلاب الصناعي بنتائجه المعروفة، وخيبته في تحقيق الحرية والعدالة والمساواة، أي اليوتوبيا، بل وخيبته إذ تحولت اليوتوبيا إلى ايديولوجية البورجوازية المانوية، كما عرضنا سابقاً، أما الطريق الآخر فهو «أدب الخيال العلمي» الذي بدأ منذ هـ.ج- ولز يحذر من خواء العلوم والتقنية من المضمون الانساني، بل ويطالب بهذا المحتوى، وقد وصل هذا الاتجاه قمته في القرن العشرين، مع أدب الخيال العلمي، فقد استمرت اليوتوبيا واليوتوبيا العلمية خصوصاً، ولكن بدأ يظهر مايمكن أن نسميه: يوتوبيا مضادة، وهذا الأدب اليوتوبي المضاد سيكون سمة الرواية في القرن العشرين تقريباً، مثلما كان إخفاق الأحلام هو سمة الرواية في القرن التاسع عشر، «فأمريكا» لم تعد حلماً، بل صارت واقعاً، وواقعاً مراً، دولة متحققة ومنخرطة في العالم القديم إياه، و «الحلم الأمريكي» صار مجرد ذكرى أليمة أحياناً، ورمزاً حيناً آخر.

١٤
―
٦

توحيد العالم، سيطر العلم والتقنية، اكتشاف كل الأرض، الصعود إلى السماء، والغوص تحت البحر، تدخل الانسان في التاريخ وهو يريد توجيهه والأخذ بزمامه منذ الثورة الفرنسية أولاً، والتي أنتجت حريتها وعدالتها ومساواتها الخاصة، عودة الملكية، وبعدها تمكن البورجوازية، ثورات الثلاثينات والأربعينات في أوروبا، وبعدها أتت الكومونة ١٨٧٢ – وأخفقت، لكنها تركت ندبتها وذكراها، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر أتت الثورة الصناعية، وسيطرت الرأسمالية على العالم نهائياً، وبهذا اكتمل القرن التاسع عشر الذي بدأ مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وانتهى عام ١٩١٣ مع نشوب الحرب الاستعمارية الأوروبية الأولى، وقيام الثورة الاشتراكية الروسية التي بدأت عصراً جديداً، عصر تحقيق اليوتوبيا غير البورجوازية، يوتوبيا العمال، يوتوبيا المساواة والعدالة والحرية، يوتوبيا الصناعة بدون رأسمالية أواستعمار، يوتوبيا الاشتراكية، كماحلمت.

لكن ماذا حدث بعد ذلك، لنتابع الرواية، ولنتابع اليوتوبيا المضادة هذه المرة، هذه اليوتوبيا التي أتت هذه المرة مُرَّة مرارة إخفاق آخر التجارب اليوتوبية، ومع إخفاق هذه التجربة، ستنتزع الثقة بالصناعة والثقة بالعقل عموماً، وسيبدأ الفكر الأوروبي والعالمي بالعودة ماقبل عصر النهضة الأوروبية عموماً، بل وسيساور الحالمين عموماً الشك في إمكانية الخلاص من أغلالهم وقيودهم، وعندها ستبدو صحيحة ماركس السابقة مجرد صراخ رومنتيكي جميل، لكنه مستحيل.

١٤
———
٧

من هذه الفرجة مابين اليوتوبيا والواقع، مابين الحلم وعدم تحققه، مابين وعود اليوتوبيا وإنجازاتها، ستتقدم الكنيسة وأفكارها متسللة من جديد، فبدءاً من أواخر القرن التاسع عشر سيشتد الهجوم على منجزات العقل والحضارة والعلوم، وستدعو الكنيسة خرافها الضالة للعودة إلى الايمان، وسينتج ذلك أدباً روائياً دينياً هذه المرة، وروايات لو تصورها دانيال ديفو في القرن الثامن عشر، أو فولتير بعده، لنهضا من قبرهما محاربين، أما دون كيشوت فكان سيلقي سيفه ويعود إلى كتبه وضيعته آسفاً ويائساً، فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، سنقرأ، وجنباً إلى جنب مع اليوتوبيات المضادة التي سنعرض بعضها، وهي يوتوبيات روائية مضادة للعلم واليوتوبيا الاشتراكية والرأسمالية معاً، أقول: سنقرأ روايات دينية مكتوبة بأقلام بول بورجيه وفرانسوا مورياك وجورج برنانوس، وكل هؤلاء يعلنون في أدبهم: لقد أخفق زمن تدخل الانسان في التاريخ، وهاقد عاد زمن الله ليتدخل في العالم، وليوجه مصيره، بعد أن فشلت وتماديت أيها السيد الانسان المتباهي بعقله وعلمه ونفسه.

كيف انهزم الانسان وهو يتدخل في التاريخ ليحقق يوتوبياه بنفسه على أرضه ويروي روايته بقلمه، وكيف عاد الله ليتدخل في التاريخ رافعاً كتبه القديمة، ومعيداً مؤسساته اياها ومعلناً أن لايوتوبيا في هذه الأرض، على الاطلاق، وأن خاتمة الرواية إنما تكون في العالم الآخر، في يوم الدينونة الكبرى؟

فانتظروا...

لنتابع الرواية، واليوتوبيا، ولكن المضادة هذه المرة.

القرن العشرون
ليست خاتمة ، لكنها يوتوبيا مضادة
ورواية يائسة ، وأمل . . .

القرن العشرون :

ليست خاتمة ، لكنها يوتوبيا مضادة
ورواية يائسة ، وأمل . . .

١٥
—
١

في عام ١٩٠٥ أصدر هـ. جـ. ولز «يوتوبيا حديثة»، فما الجديد في يوتوبيا ولز بعد سيل اليوتوبيات الذي لم ينقطع ابتداءً من يوتوبيا توماس مور، ومدينة الشمس لكامبانيلا، ومروراً بـ «ارون»* لصموئيل بطلر ١٨٧٢ وأبناء أرض لاوجود لها - ١٨٩١ لوليم موريس، ووصولاً إلى يوتوبيا ولز الحديثة؟

لاحظ ولز أن اليوتوبيات قبله، وابتداء من «جمهورية أفلاطون» تأخذ الحياة كوجود ثابت غير متغير، وتعامل الانسان بالمفهوم نفسه، بينما الحياة وإنسانها عكس ذلك، فهما وجود دائم التغير، وبالتالي ليس من حقنا أن نرسم صورة جامدة، واحدة ونهائية لشكل يوتوبيا الانسان المأمولة، كما أن هناك واقعاً جديداً لايمكن التغاضي عنه عند رسم أية يوتوبيا حديثة، ألا وهو وحدة العالم الجديدة، فاليوتوبيا الحديثة إذن لم تعد تكتفي بجزيرة أو بلاد بعيدة أو حتى «قارة»، لكنها يجب أن تعم الكرة الأرضية، فما من عزلة باتت ممكنة بعد اليوم، حتى ولو كانت «عزلة يوتوبية»، أو عزلة مدينة فاضلة، ولأن الأرض واحدة ومتنوعة بسكانها وبشرها، فيجب أن تأخذ اليوتوبيا البشرية هذا التنوع بعين

---

* «EREHWON» هذه الكلمة هي قلب لفظي - املائي لكلمة «NOWHERE» أي «لامكان - يوتوبيا .

الاعتبار، وألا تكون كاليوتوبيات «القديمة»، لاتحتوي إلا أناساً متشابهين، وأشبه بالمثل العليا، وليس بالبشر، ولهذا فاليوتوبيا الحديثة عند ولز تحتوي أفكاراً وعقائد متنوعة تضبط بينها فكرة التسامح، وفكرة الحرية الشخصية، وبالطبع، ماكانت اليوتوبيات القديمة لتفكر بمثل هذه «المكاسب» الفردية التي هي من سمات المدنية الحديثة، والتي يريد «ولز» تعميمها وتعميقها بحيث تتحول الأفكار الأساسية والايجابية في العالم الجديد إلى أسس ليوتوبياه الحديثة التي يبدو أنه كان يعتقد أن مكانها المحدد هو الكرة الأرضية ذاتها، وعلى كل حال فيوتوبيا ولز الحديثة إنما كانت معادلة لأفكاره وتصوراته الاشتراكية المعتدلة «الفابية» وأمله بتحقيقها على الكرة الأرضية، بعد أن أصبحت الفكرة الاشتراكية طريقة وحلماً عالمياً لتدخل الانسان في التاريخ، وبناء اليوتوبيا الحديثة بشرياً، وعلى هذه الأرض، فماذا حدث لهذه الفكرة اليوتوبية الاشتراكية والعالمية؟

$\frac{١٥}{٢}$

يؤثر عن «لينين» أنه كان يقول «لنحلم» ومعروف مضمون حلم لينين منذ ماركس: إنه اليوتوبيا الاشتراكية الأرضية والعالمية، وهي يوتوبيا لاحاجة لشرحها الموسع، إنها يوتوبيا «علمية»، اجتماعية شرحها لينين بقوله: «الشيوعية (هي الكهرباء وحكم المجالس» أي العلم، وديمقراطية الشعب، مع ملاحظة أن حكم المجالس يتضمن قتل «اللوايثان» أي حل الدولة، وقد استطاع لينين ورفاقه البلاشفة في ظروف الحرب الاستعمارية الأوروبية الأولى الوصول إلى الامساك بسلطة الدولة أي «بقرن اللوايثان» وذلك بسلوك طريق الثورة عام

١٩١٧، أملاً في حل الدولة بعد الشروع في تحقيق حلم اليوتوبيا، أي بناء الاشتراكية، ومن ثم تحويل التاريخ والعالم من الرأسمالية وقهرها وظلمها، إلى طريق اليوتوبيا الاشتراكية وعدالتها ومساواتها الانسانية الشاملة للعالم كله.

لكن الرياح، مرة أخرى لم تهب بما تشتهي السفن، فالكهرباء، تعممت لكن حكم المجالس ألغي، وعاد اللوايثان ليسيطر، وقد فسر سبب ذلك بأنه ذاك «الفساد الأصيل» في الانسان، والذي لاحظه وتحدث عنه جواناثان سويفت في رحلات جلفر، فقد عاد هذا الفساد إلى العمل والسريان في قلب الحلم المتجسد على شكل «الدولة» الاشتراكية، فهدمها من الداخل، بعد أن حوصرت اليوتوبيا الاشتراكية وعزلت فاضطر اللوايثان أو الدولة لتشديد قبضتها بدل أن تخف أن تنحل، وهكذا ظهر اللوايثان الاشتراكي أقوى من أي لوايثان آخر عبر التاريخ بواسطة ستالين ودولة الصناعة والتحكم المركزي والحزب الواحد، أما المساواة فقليل هم الذين اقتنعوا أنها تحققت في ظل هذه اليوتوبيا الاشتراكية، وأما حريات الأفراد فقد سفحت دون داع، وبدل أن تبني الاشتراكية عالماً مناقضاً للرأسمالية نوعاً وقيماً، فقد صار حلم هذه اليوتوبيا الاشتراكية هو اللحاق بالرأسمالية غير اليوتوبية إطلاقاً، إلى أن تهدمت هذه اليوتوبيا عندما تحولت ذات يوم إلى عقيدة وايديولوجية وأرقام وإحصاءات وبيانات وحروب وكبت في الداخل، وبالاختصار فقد حصل لها مايحصل لكل يوتوبيا عندما تتحول إلى ايديولوجيات، وكل مايحصل للحلم الذي يتحول إلى واقع، ومرة أخرى دار الزمن دورته، وعاد إلى نقطة بدايته عندما يتحول الحلم إلى واقع، واليوتوبيا إلى ايديولوجية، ويبدو أنها سنة التاريخ، ألم يحصل الشيء نفسه ليوتوبيا العلم والعقلانية عندما تجسدت في الرأسمالية؟!

١٥
―
٣

هذا الذي حدث ليوتوبيا الرأسمالية المتجسدة في دولة العلم والعقلانية وايديولوجية البورجوازية وسيطرتهما خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين وهذا الذي حدث ليوتوبيا الاشتراكية وحلمها المتجسد في التجربة الاشتراكية الروسية وتوابعها، أدى إلى «كفر» الكثيرين بفكرة اليوتوبيا عموماً، سواء أكانت اليوتوبيا العلمية البورجوازية العقلانية، كما تحققت في أوروبا الغربية وأمريكا، أم اليتوبيا الاشتراكية العلمية العمالية، كما تحققت في أوروبا الاشتراكية، وهذا ماأنتج بدوره ماسمي في أدب القرن العشرين باليوتوبيا المضادة، وهي يوتوبيا يمكن أن نعتبرها، أو نعتبر فكرتها السمة الأساسية للرواية الأوروبية في القرن العشرين، والفكرة الأساسية لليوتوبيا المضادة هي: رفض ماتحقق وفضحه، فثمة يوتوبيا مضادة للعلم عموماً، يمكن أن نقرأها في أدب الخيال العلمي خصوصاً وكما في «حرب مع السمندر» ١٩٣٧ لكارل تشابك «١٨٩٠ - ١٩٣٨» حيث يصبح الانسان أسير ماخلقه وصنعه، ومعروف أن الانسان خلق شيئين خطيرين وأساسيين في العصر الحديث، ثم صار أسيرهما، وهما اللوايثان - الدولة- والصناعة، كما أن هناك يوتوبيا مضادة لليوتوبيا الاشتراكية «العلمية» التي تحققت وتتمثل في رواية «نحن - ١٩٢٤»، لزامياتين الروسي، والتي هي أقرب للخيال العلمي المحذر من سيطرة العلوم والتقنية والاستبداد، وكذلك في رواية «المعلم ومرغريتا» ١٩٤٠ لبولجاكوف الروسي أيضاً، حيث يتخذ رفض العلم والاشتراكية بعداً دينياً واضحاً. كذلك في رواية ١٩٨٤ «لجورج أرول البريطاني ١٩٤٨، المحذرة من سيطرة مجتمعات الناس المتشابهين - الاصفار، وسيطرة الدولة واستبداد الأفراد والحكام.

أما في رواية «يولسيس» لجمس جويس»، فإن شخصيتها الرئيسية «بلوم» يتجول في بؤس متاهة مدينة دبلن، عوضاً عن تجوله في سهوب المانشا مثل دون كيشوت، أو في البحار مثل «يولسيس» في الالياذة الهومرية. ضمن هذه الرؤية، «رؤية اليوتوبيا المضادة» يمكن أن نقرأ أعمال التيشكي فرانز كافكا ١٨٨٣ - ١٩٢٤، فأعمال فرانز كافكا هي يوتوبيا مضادة تبين كيف وصل الانسان المعاصر في يوتوبياه العالمية الحديثة إلى أن ينكر نفسه ويضيعها، ومن ثم فإنه يتحول إلى «صرصار» ضائع بين ملفات القوانين، بل ان الانسان عاد يشعر أنه محكوم عليه بجريمة لم يرتكبها، أو لايعرفها على الأقل، وهكذا بدت يوتوبيا كافكا المضادة قاتمة، قتامة العالم الصناعي - الرأسمالي الذي أنتجها، والرواية الوحيدة التي يبرق فيها شيء من الأمل في يوتوبيا كافكا المضادة هي رواية أمريكا وهذا يعيدنا إلى «الحلم الأمريكي» الذي صار رمزاً لحلم ضائع مثل جنة عدن المفقودة، وإن كانت أمريكا قد صارت كعدن في الحقيقة، مجرد حلم مجهض وفردوس مفقود - مأمول للبشرية، وقد أوضحت كتب كثيرة تحولات «الحلم الأمريكي» وخاصة كتابا كلود جوليان «الامبراطورية الأمريكية» و «الحلم والتاريخ» وكتاب (الداء الأمريكي) لميشيل كروزيه، وكتب كثيرة غيرها لامجال لعرضها.

١٥
___
٤

سواء في الرأسمالية أم في الاشتراكية، فقد أخفق الحلم وتحددت اليوتوبيا في مكان هو مكان الحضارة العالمية الرأسمالية التي نعيشها، وهكذا ضاعت «أمريكا» التي كانت وعوداً، فودعها «ودع الاسكندرية التي ترحل» كما يقول الشاعر اليوناني كفافيس، ف: «ايثاكا هي الطريق» والجنة هي مخيالها، واليوتوبيا هي الأمل بها، ومكانها هو

المخيلة وليس الواقع، أو، وهنا الانعطاف الكبير، وبداية اكتمال الدورة، وارتداد القوس، أو: عد إلى الدرب الذي ماتزال الكنيسة والتفكير الديني يشيران إليه منذ وجدا، مع أنهما أخفقا مراراً، ومقولته، أو روايته ان اليوتوبيا قائمة في العالم الآخر، أما هذه الدار الفانية، أو الحياة القصيرة العابرة فهي مجرد محطة انتظار، وفعلاً هذا مايحدث وهذه هي قمة اليوتوبيا المضادة اليوم، فالعودة إلى التفكير الديني ورؤيته بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر تطل برأسها على استحياء، أما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد قامت دولتان على أساس ديني هما: اسرائيل والباكستان، مثلما تحولت الدعوة الدينية إلى حربة وسلاح في يد الرأسمالية تهاجم بها الاشتراكية وتطوقها بأحلافها الدينية السياسية، إلى أن وصل الحكام الأمريكان في الثمانينات إلى استخدام لغة دينية محضة في مهاجمة الشيوعية عندما وصفها ريغان بـ «امبراطورية الشر»، وأخيراً انهارت «امبراطورية الشر» هذه، لكن الشر بقي قائماً، وتصاعد مدُّ الحركات الدينية الأصولية في الأديان الثلاثة *، كما نلاحظ اليوم ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين، بل وبدا العالم وكأنه تحت تأثير إخفاقات اليوتوبيات البشرية في التحقق، والأحلام في التجسد، وكأنه يطالب بالعودة إلى مرحلة ماقبل الأحلام اليوتوبية البشرية، أي إلى ماقبل مرحلة النهضة الأوروبية، بل والبشرية الحديثة عموماً، فهل هذا ممكن ياترى؟ وهل تكون نتيجة الخمسمائة سنة الأخيرة من تاريخ البشرية الجديدة، وربما نتيجة تاريخ الانسان كله، منذ سار على قائمتين واستخدم عقله، هي العودة إلى نقطة الانطلاق وإغلاق الدائرة، وكأن التاريخ «عود أبدي» كما رأى نيتشه، أو كأنه حركة عابثة، وباردة؟..

* ________________

راجع: يوم الله، جيل كيبل، دار قرطبة، قبرص ١٩٩٢

هل تذهب سدى كل أفكار التقدم والتنوير والعقلانية والتسامح والعدالة والمساواة والاشتراكية، أفكار البورجوازية الصاعدة والاشتراكية الحالمة، وهي الأفكار التي كونت الوجود الانساني وأعطته هويته منذ عصر النهضة الأوروبية والعالمية فيما بعد، هل يذهب كل ذلك سدى، وكأنه يذهب هباء، وكأنه جملة اعتراضية أتت في غير مكانها؟

هل ينتحر الانسان؟! فالتخلي عن العقلانية والعدالة، التخلي عن العقل والعلوم وإنجازاتهما، وعلى الرغم من كل السلبيات، إنما هو انتحار، ولكن بالمقابل، هل يبقى العقل منفلتاً من أخلاقه، فيتحول نهائياً إلى عقل أداتي – تقني، وينكر حلمه وحكمته ويوتوبياه، مقتنعاً ببيع نفسه و «قوة عمله» لقلة بشرية تعهدته وأنمته في البداية، لكنها مالبثت أن قيدته، واستغلته للعمل لديها فقط، وكأنه قن آخر، أو كأنه عامل من عمالها؟

هل ضاعت فكرة اليوتوبيا إلى الأبد؟وهل فقد الانسان قدرته على الحلم والخيال بمستقبل و«مكان»أفضل، بمستقبل و «عالم جديد شجاع» كما كان هكسلي يتمنى؟ ألا يمكن أن يعاود الانسان حلمه بيوتوبيا تشمل هذه الأرض كلها، يوتوبيا، «أو مجتمع عالمي إنساني» متسامح في أحلامه وأفكاره وشعوبه وعقائده وثقافاته وطرق عيشه، كما في يوتوبيا هـ. جـ. ولز الحديثة، التي تحلم باليوتوبيا مع أخذ الواقع الانساني الواحد المتعدد بعين الاعتبار؟ أم أن هذا الانسان سائر إلى هلاكه، وإعدام واقعه وحاضره ومستقبله. على الرغم من كل الكتب التي تتحدث عن «خرائط المستقبل» و «آفاق المستقبل» *

---

* كتابان لأفلين توفلر وجاك أتالي على التوالي.

١٥
___
٥

كل السبل مفتوحة أمام الانسان، وكل الامكانات متوفرة في عصرنا هذا وكما قال الشاعر العربي:

أمامك نهجان فانظر... أي نهجيك تنهجُ

طريقان شتى.. مستقيم وأعوج

أما أي الدروب يسلك الانسان، فذلك متوقف على عقله وحكمته وقدرته على التخلص من «اللانساني» في شخصيته الجمعية والفردية. طرق الانتحار مفتوحة وسهلة، وطريق الحياة مفتوحة كذلك، وإن لم تكن سهلة، ولهذا لم يبق لنا إلا أن نأمل، أن نحلم ونأمل ونعمل، فالمستقبل إمكانية نستطيع صنعها وتشكيلها حسب حكمتنا وتدبيرنا و «عقلنا»، ويمكن للحكمة أن يكون لها نصيب في صناعة المستقبل والتاريخ، في حفظ حياة الانسان التي أصبحت موضع شك، واليوم أكثر من أي وقت مضى، تتكافأ إمكانيات العيش الرغيد للانسان، وإمكانياته للتدمير، ولكن هذا موضوع آخر.

لنحلم، ولنأمل، فعبر الحلم والأمل، عبر الحكمة والعقل الأخلاقي، قد يكون هناك مخرج من المأزق الذي نعيش فيه، أو الذي أوصلنا أنفسنا ووجودنا إليه، لنحلم، لنأمل ولنعمل، ففي أقسى الظروف والأزمان كان الانسان يحلم ويأمل ويعمل، وفي أقسى الظروف حلم الانسان وتخيل الجنات واليوتوبيات وكتب الروايات والأشعار وغنى واخترع ورسم ومثل المسرحيات، لنحلم ولنأمل، ولنعمل، فذاك هو الطريق الممكن، ودوماً كانت هناك طريق مفتوحة.. وليكن الأمل، لا اليأس، مبدأنا، ولتكن اليوتوبيا، لا اليوتوبيا المضادة، خيالنا وحلمنا وروايتنا وتاريخنا

لنأمل......

لنأمل.. ونعمل...

إحداثيات وتواريخ

احداثيات هامة
١٤٩٢ - ١٩٩٢

١٤٩٢	سقوط قرطبة وصول كولومبس إلى أمريكا
١٤٩٨	وصول فاسكودي غاما إلى الهند (الدوران حول أفريقيا للوصول إلى آسيا)
١٥١٣	كتاب الأمير – مكيافيلي
١٥١٦	يوتوبيا – توماس مور
١٥١٧	انشقاق مارتن لوثر
١٥٢٣	كتاب كوبرنيكوس: دورة الأفلاك السماوية
١٦٠٢	مدينة الشمس – كامبانيلا
١٦٠٥	دون كيشوت – سرفانتس
٦١٠	اختراع التلسكوب – غاليلو
١٦١٦	محاكمة غاليلو
١٦٢٠	الاورجانون الجديد – بيكون
١٦٣٠	مقالة الطريقة – ديكارت
١٦٣٨	محادثات عن علمين جديدين. غاليلو
١٦٤٢	الفلسفة الطبيعية في المبادئ الرياضية ، نيوتن
١٦٥١	اللوايثان – هوبز
١٦٥٦	رسالة في اللاهوت والسياسة – سبنوزا
١٦٨٩	رسالة في الحكومة المدنية ٠ لوك
١٦٩٨	الآلة النارية – سيغري

١٧٠٥	الآلة البخارية - نيوكمن
١٧١٥	روبنسون كروزو- ديفو
١٧٢٧	رحلات جلفر - سويفت
١٧٥١ - ١٧٧٧	نشر الموسوعة الفرنسية
١٧٦٦	اكتشاف الهيدروجين - كافنديس
١٧٧٢	عزل النتروجين - روثفورد
١٧٦٢	العقد الاجتماعي - روسو
١٧٧٤	اكتشاف الأوكسجين - بريستلي
١٧٨٤	احداث الماء تجريبياً . كافنديش
١٧٨٧	كتاب: نقد العقل المحض - كانت
١٧٨٩	الثورة الفرنسية
١٨٣٩	التصوير الضوئي
١٨٤٨	البيان الشيوعي - ماركس - انجلز
١٨٥٢	أصل الأنواع - داروين
١٨٩٥	أشعة X رونتجن
١٩٠٠	تفسير الأحلام - فرويد
١٩٠٥	أول طيران
١٩١٧	النظرية النسبية - انشتاين

١٩١١	اكتشاف الذرة - روز فورد
١٩١٤	الحرب الأوروبية (العالمية) الأولى
١٩١٧	الثورة الروسية
١٩٣٠	الأزمة الاقتصادية الكبرى
٩٣٣	صعود النازية - ألمانيا
١٩٣٧	محاكمات ستالين الصورية

١٩٣٩	الحرب الأوروبية (العالمية)الثانية
١٩٤٥	إلقاء القنبلتين الذريتين على اليابان
١٩٥٧	أول قمر صناعي – بدء غزو الفضاء الخارجي
١٩٦٨	الوصول إلى القمر
١٩٩١	انهيار الاتحاد السوفييتي (اليوتوبيا الاشتراكية)

خاتمة

-١-

ربما كان العالم يتجه إلى شمولية تسلطية من نوع جديد، لكنه في الوقت نفسه وفيما يبدو لي، يتجه إلى أممية إنسانية من نوع جديد أيضاً. فالرأسمالية أكملت، كما هو واضح اليوم، توحيدها للعالم، ليس في اكتمال نمط إنتاجها فقط، بل وفي اكتمال هيمنتها ومركزتها لسلطتها أيضاً، وهذا ماخلق أو هو يخلق، وفي مواجهة هذه الرأسمالية المهيمنة العابرة للقارات والثقافات والشعوب، أممية إنسانية، أممية إنسانية هي، في روحها وعمقها ورحابتها وهدفها أو حلمها، نقيضة للمهيمن، على مدى وعمق سيطرته وهيمنته.

عندما يكتمل الشيء، يكتمل نقيضه، خيراً وشراً، أم أن الأمر ليس كذلك؟

-٢-

ربما كان هو الوجه الآخر، والذي قليلاً مايرى اليوم، للمسألة، أي لسيطرة الشمولية الجديدة، ولنكن صرحاء في تسميتها: الرأسمالية. الرأسمالية بما هي نمط حياة وقيم.

يبدو أن ضجيج الندب والتهويل، وهجاء الرأسمالية عموماً، وأمريكا خصوصاً والتكنولوجيا دائماً، يغطي على هذا الوجه الآخر لعملية توحيد العالم، وهو وجه للمسألة قد يكون إيجابياً إذا نظرنا إلى الوجه الآخر من العملة، كما يقولون، فللمرة الأولى يتوحد العالم، ويصبح الانسان أخاً للانسان حقاً في كل مكان، بل ويصبح الانسان «حاضراً» في أي مكان على الأرض بواسطة التكنولوجيا وأدوات اتصالها، هذه التكنولوجيا التي يتفنن بعضهم في هجائها، وبواسطة منجزاتها.

على الرغم من قتامة الموقف المعاصر ومصاعبه، فمازال هناك إمكانية للحلم اليوتوبي، صحيح أن التقنية وعقلنة العالم، أو حلم «العالم الجديد»، أمور أصبحت من سمات مرحلة النهضة الأوروبية، والتي تبدو اليوم بعيدة، فالعالم المعاصر أبعد مايكون عن العقلانية و «الجِدَة»، لكن الحلم في جوهره مايزال ممكناً ومطلوباً، حلم العدالة والسعادة لكافة البشر، حلم مسكونة لايجوع الانسان فيها ولايعرى، مسكونة لايضطهد فيها عقل الانسان أو جسده أو خياله، حلم «اليوتوبيا» البشرية منذ أولمب الأساطير، وجنة الأديان وجمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة، ومدينة الشمس، وصولاً إلى «يوتوبيا» «روايات الخيال العلمي» ويوتوبيا الاشتراكية مروراً بـ «الحلم الأمريكي»، أي حلم العالم الجديد.

-٣-

الثقافة وطن. وربما كان هو الوطن الذي سكنه ويسكنه المثقفون والفنانون، دون أن يشعروا بذلك في الماضي، لكنهم اليوم، يدركون هذه الحقيقة ويعيشونها، فكل البشرية، أو المهتمون منها على الأقل، تقرأ اليوم الكتب نفسها، وترى الأفلام نفسها، وترتدي الأزياء نفسها، وتعيش الأحداث مرئية نفسها، كل البشرية تكاد تعيش نمط حياة موحداً، أو هي تطمح إلى نمط موحد، ووجه الاختلاف، وهو ليس بالوجه قليل الأهمية، يكمن في سوء توزيع الفقر والغنى على هذه الأرض - الوطن، أي بين ماكان قارات وأوطاناً وشعوباً، ويزيد الأمر صعوبة وتعقيداً، إرادة بعضهم المحافظة على هذه الفروقات مما يجعل حبل التوتر مشدوداً دائماً، أما اختلافات التقاليد والثقافات التاريخية، فربما كان مصدر غنى وتنوع، أكثر مما هومصدر توتر، أو مصدر تنابذ أو فرقة.

-٤-

يبدو أن عالمية وأممية الفكر والفن والثقافة عموماً قد تحققت وللمرة

الأولى في التاريخ، وقد تحققت محمولة على قطار الرأسمالية السريع الذي مايزال مندفعاً، وهذا هو إنجاز تاريخ الانسان الحديث، أو هو قمته، صحيح أنه إنجاز تحقق منقوصاً، ومسلوباً بطبقيته على مستوى كل قطر وبلد، مثلما على مستوى العالم كله، بين شماله وجنوبه، لكنه تحقق على كل حال، ومع تحققه، نبع حلم تجاوز مثلبته، حلم توحيد مستوى حياة مسافري هذا القطار الواحد، وهو حلم لايبدو مستحيلاً على كل حال، لكن مقابل هذا الانجاز، كان هناك «إنجاز» آخر للانسان الحديث، إنجاز، ربما كان يمثل «غريزة» الموت لدى الانسان عموماً، فإذا كان الانجاز الأول يمثل «غريزة» الحياة، فإن هذا الانجاز «الآخر» هو وصول الانسان إلى إمكانية تدميره لنفسه وكوكبه، وجوده وبيئته، وتحويل الأرض إلى غبار ذري أو مقلب للنفايات، بعد أن تختنق الحياة أو الأرض في ركام ملوثاتها وبقايا تكنولوجيتها.

من زاوية الرؤية هذه يبدو الانسان وكأنه طفل يختنق بأقماطه، ظاناً أنه يلهو، ويزيد الأمر هولاً أن هذا الانسان الطفل يبدو أحياناً أنه واع لدماره، وأنه يسير عامداً نحو حتفه.

- ٥ -

أممية إنسانية رحبة، مقابل شمولية الرأسمالية والتكنولوجيا والسلطة، هذا مايتكون الآن، وغني عن القول أن الفن والثقافة، عموماً، وخصوصاً تلك التي تدرك مأزقية الحالة الانسانية المعاصرة، هما من ومماينشر هذه الروح الأممية الجديدة.

ماتزال اليوتوبيا ممكنة بل ومطلوبة، ماتزال حلماً جديداً، أو قابلاً للتجدد، حلماً بهياً ومستقبلياً، حلماً يستطيع أن يهب الناس دافعاً - ولنسمه روحياً - لبناء عالم جديد.. أو تخيله على الأقل، ففي الخيال متسع للواقع أيضاً، عالم هو كما كان يحلو لالدوس هكسلي أن يصفه:

عالم جديد شجاع.

مكتبة البحث

أ- اليوتوبيات:

-رحلات جلفر. جوناثان سويفت ترجمة محمد محمد رفاعي. جزءان .مكتبة نهضة مصر لاتاريخ.

- رحلات جلفر . ترجمة د. محمد رجا الديريني. مكتبة لبنان. بيروت ١٩٩١ ثمة مقدمة عميقة وشاملة لهذه الترجمة.

- كنديد. فولتير. ترجمة: عادل زعيتر. دار المعارف. القاهرة ١٩٥٥

- مدينة الشمس - تومازو كامبانيلا. ترجمة حسن حسين شكري، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠

- يوتوبيا توماس مور. ترجمة وتقديم: انجيل بطرس سمعان، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٤.

ب- الروايات:

- الأحمر والأسود، ترجمة غياث حجار. دار عويدات ، بيروت ١٩٦٠.

- التحفة البستانية في الأسفار الكروزيةأو رحلة روبنسون كروزو. ترجمة المعلم بطرس البستاني. جزءان. بيروت ١٨٦١ - الأول - والثاني - ١٨٨٥

- دون كيخوته. ثربانتس. ترجمة: عبد الرحمن بدوي ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥ جزءان.

- حرب مع السمندر: كارك تشابك. تعريب حسين العامل. مؤسسة ارتا. براغ لاتاريخ

- القضية. فرانز كافكا - ترجمة: د. مصطفى ماهر. دار الكاتب العربي. القاهرة.

- المعلم ومرغريتا. ميخائيل بولجاكوف. ترجمة: يوسف حلاق. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦
- مول فلاندرز. دانيال ديفو. ترجمة خالد حداد. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١
- المسخ. فرانز كافكا. ترجمة: منير بعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت.
نحن ب. زامياتين. ترجمة يوسف حلاق - وزارة الثقافة - دمشق- قيد النشر.
- ١٩٨٤. جورج أورول: ترجمة شفيق أسعد فريد وعبد الحميد محبوب ومراجعة عبد الرحيم رشوان. مكتبة الانجلو مصرية القاهرة ١٩٥٦.
(إضافة إلى روايات أخرى ذكرت أثناء البحث).

ج- مراجع فكرية وأدبية وتاريخية

- أزمة الضميرالأوروبي. بول هازار ترجمة: جودت عثمان ومحمد نجيب مستكاوي. دار الكتاب المصري، القاهرة ١٩٤٨.
- أدب الخيال العلمي، جان غاتينيو ترجمة: ميشيل خوري. دار طلاس . دمشق ١٩٩٠.
- الأدب الانكليزي. بول دوتان. المترجم غير مذكور. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٤٨.
- أرض الأحلام. د. زكي نجيب محمود. كتاب الهلال ٣١٥ مايو - أيار١٩٧٧
- البورجوازية. ريجين برونو. ترجمة: فهمي الدالاتي. مراجعة د. عمر شخاشيرو . وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٠.

- الأعمال المختارة. ماركس. انجلز أجزاء. دار التقدم موسكو. ١٩٨٠ - ١٩٨١
- - أوروبا التقنية - دافيد. س لاندر. ترجمة روزيت خوري. وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٤
- الايديولوجية واليوتوبيا. كارل مانهايم. ترجمة د. عبد الجليل الطاهر. بغداد ١٩٦٨
- الأمير - مكيافيلي. ترجمة: فاروق سعد. دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ماكس هوركهايمر. ترجمة محمد علي اليوسفي. دارالتنوير بيروت ١٩٨١.
- تاريخ الأفكار السياسية. جان توشار. ترجمة: ناجي دراوشة. وزارة الثقافة. دمشق ١٩٨٤
- تاريخ الفلسفة الغربية برتراندسل. ترجمة: د. زكي نجيب محمود جزءان ١٩٥٧ والثالث ترجمة محمد فتحي الشنيطي. القاهرة ١٩٧٧.
- تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم. دار القلم، بيروت لاتاريخ.
- تاريخ الفلسفة، إميل برهييه. ترجمة: جورج طرابيشي ٧ أجزاء دار الطليعة بيروت ١٩٨٢ - ١٩٨٧
- التأملات في الفلسفة الأولى. ديكارت. ترجمة: د. عثمان أمين. مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٥
- تكوين العقل الحديث. جون هرمان راندل ترجمة: جورج طعمة. دار الثقافة بيروت ١٩٦٥
- توماس هوبز. فيلسوف العقلانية. د. إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير بيروت ١٩٨٥.
- حياة دون كيشوت. ميكال دي أونامونو. ترجمة علي جابر. وزارة الثقافة. دمشق ١٩٨٧
- دون كيشوت بين الوهم والحقيقة د. غبريال وهبة. الهيئة المصرية

العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩

- دون كيخوته في القرن العشرين (مجموعة من الكتاب الاسبان) ترجمة د. محمود صبح وخوليو كورتيس المعهد الاسباني العربي - مدريد.

- الرواية الانكليزية. والتر ألن. ترجمة صفوت عزيز جرجس مراجعة: مرسي سعد الدين، الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٦.

- رواية الأصول وأصول الرواية: مارت روبير. ترجمة وجيه الأسعد. اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٨٧.

- فلسفة الأنوار. فولغين. ترجمة هنرييت عبودي. دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨.

- فلسفة عصر النهضة. أرنست بلوخ. ترجمة: الياس مرقص. دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠

- فتح أمريكا - مسألة الأخر. تزفيتيان تودوروف. ترجمة: بشير السباعي. سينا للنشر. القاهرة ١٩٩٢

كريستوفر كولومبس، صاموئيل اليوت موريسون. ترجمة فوزي قبلاوي. مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٩.

- مدخل إلى الرواية الانكليزية: ارنولد كيتل. ترجمة هاني الراهب. وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٧.

- موجز تاريخ الأدب الانكليزي. ترجمة: د. شوقي السكري وعبد الله حافظ. الدار المصرية لكتاب ١٩٥٨.

- مع الفارابي والمدن الفاضلة، فاروق سعد. دار الشروق ، بيروت ١٩٨٢

- مقالة الطريقة - رينيه ديكارت. ترجمة جميل صليبا. اللجنة الدولية لترجمة الروائع اليونسكو. بيروت ١٩٥٣.

- الملحمة والرواية. ميخائيل باختين. ترجمة: د. جمال شحيد. معهد الانماء العربي بيروت ١٩٨٢.

- الملحمة كرواية بورجوازية. جورج لوكاتش. ترجمة: جورج طرابيشي . دار الطليعة، بيروت ١٩٧٩
- نشوء الرواية. ايان وات. ترجمة عبد الكريم محفوض .وزارة الثقافة دمشق ١٩٩١.
إضافة إلى كتب أخرى أشير إليها خلال البحث.

- موسوعات ومعاجم :

- تراث الانسانية، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - طبعة دار الرشاد الحديثة ٨ أجزاء.
- قصة الحضارة. ول ديورانت المجلد ٣٥- ٣٦- ٣٧- ٣٨- ٣٩- ٤٠.
- الموسوعة الفلسفية الحديثة - معهد الانماء العربي ، بيروت ١٩٨٦ -١٩٨٨
- موسوعة الفلسفة. عبد الرحمن بدوي. المؤسسة العربية للدراسات. بيروت ١٩٨٤
- الموسوعة الفلسفية المختصرة. ترجمة: فؤاد كامل. جلال العشري. عبد الرشيد الصادق. مراجعة زكي نجيب محمود. مكتبة الانجلو مصرية القاهرة ١٩٦٣.

-مجلات:

مجلة فصول - القاهرة المجلد السابع. العددان ٣- ٤ ١٩٨٧
مقال: الايطوبيا والايطوبيات

الكلمة والأصناف والدلالة
عبد العزيز لبيب

مجلة الكرمل: العدد ٣
ماهو عصر التنوير؟!
ايمانويل كانط
ترجمة: يوسف الصديق

الفهرس

القسم الأول

القسم الثاني

حصلت أوروبا على «مجال حيوي» ومصدر جديد للقوة، وبهذا تفوقت على منطقة الشرق الأوسط، وبالتزامن مع هذا التطور الجغرافي. الاقتصادي، كان هناك ثروة جديدة وتطور فكري وعمراني وعلمي تقني وضع أوروبا على مسار العصر الحديث، بينما في الوقت نفسه، وكنتيجة لهذا التقدم الأوروبي، كانت تحدث في الشرق الأوسط أو العربي مسيرة متعاكسة مع الصعود الأوروبي، وهذا ما أدى، مع الزمن إلى الفروق الشاسعة التي نراها اليوم مابين هذين المديين الجغرافيين.

يقتصر هذا البحث، (الرواية واليوتوبيا ١٤٩٢ - ١٩٩٢)، على تأمل نتائج ودلالات الحدث الثاني، أي دخول أوروبا إلى التاريخ وسيطرتها عليه منذ اكتشاف أمريكا، مركزاً على الدينامية الداخلية لسيرورة هذا الحدث، وإن تم ذلك من مقترب أدبي هو مقترب فني «الرواية واليوتوبيا» «وهما فنان أوروبيان بامتياز، في ظهورهما وتطورهما وتواشجهما.

محمد كامل الخطيب

دار المدى للثقافة والنشر